محكم

تطويع السياسة للإيمان:
فرقة "الحشّاشين" أنموذجا

عبد المنعم شيحة

باحث تونسي

قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة

جميع الحقوق محفوظة
مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات و الأبحاث
All rights reserved
Mominoun Without Borders

تمهيد:

إنّ مفهوم الإيمان في الحضارة العربيّة الإسلاميّة من المفاهيم الجوهريّة التي ترتّب على فهمها والعمل بها تشكّل البناء الفكريّ لهذه الأمّة في الكثير من أسسه. بيد أنّ طبيعة تعامل الفقهاء والمفسّرين والمفكّرين مع هذا المفهوم وأشكال تأويلهم لمعانيه هو مكمن الإشكال وموطن الخلاف في مدوّناتهم؛ فإضافة إلى خوض القرآن في مفهوم الإيمان وتقديمه لصفات المؤمنين في مواطن كثيرة مكيّة ومدنيّة من آياته،[1] وردت أشهر تعريفات هذا المفهوم في حديث الإحسان الشهير الذي "جاء فيه جبريل الرسول ليعلّم المسلمين دينهم".[2] وقد فسّر هذا الحديث الإسلام بالأعمال الظاهرة، وفسّر الإيمان بجملة الأعمال الباطنيّة من اعتقادات وأعمال قلوب.

لكنّ المدوّنة الفقهيّة بعد ذلك تشعّبت فيها التعريفات حول المسألة وطالعتنا باختلافات جمّة حول مفهوم الإيمان أو "معناه الأصليّ"، يمكن حصرها في النقاط الخلافيّة التالية:

- فهناك من يعتبر الإيمان معرفة الله بالقلب فقط، وإن أظهر صاحبها اليهوديّة أو المسيحيّة وسائر أنواع الكفر بلسانه، فإذا عرف الله بلسانه فهو مؤمن. وهذا الرأي نسب إلى جهم بن صفوان وغيره.

- ورأي آخر يرى أنّ الإيمان هو إقرار باللسان بالله وشريعته وإن اعتقد الكفر بقلبه، فإذا فعل ذلك فهو مؤمن، وإلى ذلك يذهب محمد بن كرّام السجستاني.

- ومن الآراء أيضاً، من يرى أنّ الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان. أمّا الأعمال، فليست إيمانا ولكنّها شرائع الإيمان، وهو قول جملة من الفقهاء منهم أبو حنيفة وغيره.

---

[1]- استخدم القرآن لفظ الإيمان خمسا وأربعين مرّة، ووظّف بغزارة مشتقات مادّة (أ.م. ن) الأخرى مثل مؤمن، مؤمنون، آمنوا، آمن... وفي القرآن سورة كاملة بعنوان" المؤمنون." ومن أهمّ الأمثلة الدالّة على غزارة الحديث عن الإيمان والمؤمنين ما ورد في أول سورة البقرة من آيات تحدّد صفاتهم وهي أربع آيات: {هدى للمتقين} / {الذين يُؤمنون بالغيب ويُقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون} / {والذين يُؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون}/ {أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون}.

[2]- عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منّا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبته إلى ركبتيه، ووضع كفّيه على فخذيه، وقال: "يا محمد أخبرني عن الإسلام"، فقال له: (الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا)، قال: "صدقت"، فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: "أخبرني عن الإيمان" قال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)، قال: "صدقت"، قال: "فأخبرني عن الإحسان"، قال: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، قال: "فأخبرني عن الساعة" قال: (ما المسؤول بأعلم من السائل) قال: "فأخبرني عن أماراتها" قال: (أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء، يتطاولون في البنيان). ثم انطلق فلبث مليا، ثم قال: (يا عمر، أتدري من السائل؟)، قلت: "الله ورسوله أعلم"، قال: (فإنّه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)." رواه مسلم.

انظر: الإمام النووي، **متن الأربعين النووية**، طبعة دار الغوثاني للدراسات الإسلامية، دمشق – سورية، (د ت) تحقيق محمد بسّام حجازي، ص 8

● أمّا أشهر آراء أهل الفقه فتعتبر الإيمان هو المعرفة بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح وكلّ طاعة واجبة، بل حتى الأعمّ منها ومن النافلة هي إيمان، وكلّما ازداد الإنسان عملاً ازداد إيمانا وكلّما نقص في العمل نقص إيمانه. وقد ذهب إلى هذا الفهم أغلب أهل السنّة والجماعة.[3]

والمتأمّل في هذه المدوّنة يلحظ أنّ أغلب نقاشات الفقهاء وتفريعاتهم وإشكاليات البحث لديهم دارت حول هذه الخلافات، فمن خلالها فسّروا مفهوم الإيمان، وعن طريقه ميّزوا العقائد السليمة من العقائد الفاسدة. وحدّ الكثير منهم دائرة الإيمان بمعانٍ دقيقة واعتقادات جليّة فمن كان داخلها فهو منهم، ويصحّ فيه مصطلح "مؤمن"، ومن كان خارجها فسد مُعتقده، وساء وضعه، ودخل تحت طائلة نواقض الإيمان القوليّة أو العمليّة[4].

إلاّ أنّ هذه المدوّنة على اتّساعها وتداخل إشكالاتها لم تتطرّق إلى تطوّر مفهوم الإيمان في الحضارة العربيّة الإسلاميّة أو تغيّر بعض أسسه وفق تغيّر مسار الحضارة ذاته وانعراجاته المختلفة، وظلّت تتعامل معه على أنّه جملة من القواعد أو الضوابط والنواميس الثابتة التي لا جدال حولها.

ويدفعنا هذا الثبات في الرؤية إلى التساؤل: ألم يدخل هذا المفهوم ضمن دائرة التجاذبات السياسيّة، مثل غيره من المفاهيم المركزيّة في الحضارة العربيّة الإسلاميّة؟ وهل سلم من التوظيف والتأويل والسحب والجذب، وقد وُظّفت أغلب المفاهيم في دائرة الصراع السياسيّ، بل نشأت علوم كاملة لتُوظّف معانيها داخل هذه الصراعات[5]؟ أليس تسييج دائرة الإيمان وتحديد من هو داخلها ومن هو خارجها -وفق المنوال الذي كنّا نذكر- هو شكل من أشكال التجاذب السياسيّ التي يُقصد منه تطويع مصطلح لصالح من هم داخل الدائرة؟ ألا يعدّ ذلك نوعاً من أنواع الشعور بالخطر الداهم لو تُرك الحبل على الغارب، وتُرك تحديد مفهوم الإيمان لمن شاء وكيفما شاء؟

إنّ البحث في تغيّر مفهوم الإيمان وتطوّره وتبدّله وفق حاجيات سياسيّة، والنظر في توظيفه في صراعات السياسة وإكراهاتها في أحايين كثيرة هو بحث سوسيولوجيّ جادٌّ حول هذا المفهوم. لذلك لا عجب أن يعتبر

[3]- انظر الشيخ جعفر السبحاني، **بحوث في الملل والنّحل**، ج 4، مؤسّسة النشر الإسلامي، ط 4، نسخة غير مصحّحة، 1415هـ، ص 85

[4]- ذلك أنّها عند هؤلاء من أعظم الذنوب على الإطلاق، فمن ارتكب ناقضاً من تلك النواقض فقد خرج من الملة، إذ لا يبقى إيمانٌ مع وجود أحد هذه النواقض، مادامت تحبط جميع الطاعات ولا يغفر الله لمن مات عليها بل صاحبها مخلّد في نار جهنم.

انظر مثلا: عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف، **"نواقض الإيمان"**، مدار الوطن للنشر، الطبعة الأولى، 1999 م، ص ص 8-9

[5]- مثل علم الحديث الذي تشكّلت إرهاصاته الأولى في قلب الصراع على السلطة بين الأمويين والشيعة والخوارج، وقد كانت بداية تدوين الحديث سياسيّة بامتياز، ومثل علم أصول الفقه الذي نشأ بداية على يديّ الإمام الشافعيّ بأثر من صراعه الشهير مع السلطة السياسيّة في عصره والتي نتج عنها ما يعرف بمحنة الشافعيّ.

باحث علم الاجتماع الفرنسيّ إميل دوركهايم (Emile Durkheim) أنّ الدين والإيمان[6]، مثل غيرهما من المفاهيم الملتصقة بواقع الناس، لا يمكن فصلهما عن الواقع الاجتماعي لا سيّما أنّهما فعلان اجتماعيّان مُرتبطان بعقائد الناس وبجملة الضوابط والنواميس التي ينبغي الالتزام بها، والعمل على تطبيقها، والذود عنها والوفاء لها، ما استطاع المؤمن إلى ذلك سبيلا. فالإيمان بدين من الأديان والالتزام به يتحوّل عمليّا إلى جملة من العقائد والأوامر والنواهي التي تحدّد بدقّة سمات المُلتزمين، وفئاتهم وحتىّ هويّاتهم الاجتماعيّة.[7]

إنّ أهمّ الأدلّة التي تكشف لنا البعد السوسيولوجيّ لمفهوم الإيمان ذاك الاتّصال الوثيق بالممارسات العقديّة للناس. وهي مُمارسات تُبنى أساسا على قاعدة الإكراه، باعتبار إلزامها المُؤمن بجملة من الضوابط والقوانين وفرْضها عليه أفعالا جوهرُها الخضوع والطاعة والوفاء.

وهذا الارتباط بواقع الناس يدفعنا إلى التفكير في عدم ثبات مفهوم الإيمان على حال واحدة، وتحوّله وفق تحوّل الأوضاع التاريخيّة والاجتماعيّة لهؤلاء الناس، وتبدّل مقولاتهم الفكريّة والسياسيّة التي تحكم عالمهم وذلك لاعتبارات كثيرة نذكر منها:

♦ ارتباط هذا المفهوم بواقع الناس المتحوّل وبسياساتهم التي لا تقف عند حدّ لذلك يطوله التحوّل مثلهم ولا يركن إلى الثبات أبداً. وقد لاحظنا في تاريخ الحضارة العربيّة الإسلامية بروز مقولات إيمانية عديدة واندثار أخرى، وانتبهنا خاصّة إلى تغيّر المقولات الإيمانيّة وفق المتغيّرات السياسيّة لهذا المجتمع.

♦ ومنها أنّه من المفاهيم الرجراجة التي يمكن تأويلها والتصرّف فيها والبناء عليها وفق حاجات المتأوّل وسياساته التي يرمي إليها.

♦ومنها كذلك أنّ كلّ الفرق والمذاهب التي سعت إلى تحنيط هذا المفهوم ووسمه بسمة الثبات معتقدة أنّها تحتكر تعريفه أو فهمه فهما صحيحاً سقطت في فخّ التخوين والتكفير، واتّهام من خالفها الفهم بتهم البدع والضلالة والهرطقة.

[6]- من أشهر الباحثين الذين تأثّروا بمقولات دوركهايم عن الأفعال الاجتماعيّة عالم الاجتماع الأمريكيّ بيتر لودفيق برجر (Peter Ludwig Berger) الذي يقول إنّ "التمييز بين الدين والإيمان لا معنى له في علم الاجتماع". انظر كتابه:

Peter Berger, the sacred canopy: elements of a sociological theory of religion, Garden city, (NY), Doubleday, 1967, p 18

[7]- Durkheim, Émile. Les formes élémentaires de la vie religieuse, CHAPITRE V: Origines de ces croyances I. - Examen critique des théories, Presses Universitaires de France, 5 ème édition, 2003, p 327

ومن هذا المنطلق، أردنا أن نبحث في الإمكانيات التي أتاحتها السياسة لتطويع هذا المفهوم والتصرّف فيه، من خلال نظرنا في بُره بعينها من تاريخ الحضارة العربيّة الإسلامية، وتوجيه عنايتنا إلى مُمارسات "سياسيّة" احتاج فيها أصحابها إلى تطويع مفهوم الإيمان وتغييره وفق مقاصدهم التي ارتأوها في صراعهم مع الفئات السياسيّة الأخرى، وتسويق فهمهم له إلى عامّة الشعب ممّن والاهم فلا يؤمنون حتىّ ينهجون نهجهم، ويمارسون ممارساتهم، ويعتقدون اعتقاداتهم. وقد لا نحرف الصواب كثيرا إذا ما قلنا إنّ هذه البره التاريخيّة كثيرة في تاريخ الحضارة العربيّة الإسلاميّة، وإنّ هذه الممارسات التي تطوّع فيها السياسة الإيمان وتحوّره وتطوّر مقولاته لصالح مراميها تكاد تغطّي تاريخيّا مُجمل تاريخ العرب القديم والوسيط والحديث. ولكنّنا اخترنا برهة تجلىّ فيها التحوير والتطويع بطريقة فاضحة هي الفترة الممتدّة بين القرنين الخامس والسابع للهجرة (الموافق للقرنين الحادي عشر والثالث عشر ميلادي) عند تشكّل الطائفة الشيعيّة الإسماعيلية النزارية، بعد انشقاقها عن الدولة الفاطميّة، واعتصامها بقلعة "آلمـــوت" بشمال إيران، وبعد دعوتها إلى إمامة نزار بن المستنصر بالله ومن جاء مِن نسله. ولفهم ذلك سوف نبحث في تطوير الشيعة مفهومَ الإيمان إبّان نشأتهم حزبًا سياسيًّا مرتبطًا بأحداث سياسيّة معيّنة، وخائضًا صراعاتٍ سياسيّةً مع أطراف صارعته، وخالفته الرأي، قبل أن نتطرّق إلى تحوير الشيعة الإسماعيلية لهذا المفهوم وفق تصوّرها الذي أسّست من خلاله عقائدها التي ظلّت سريّة على امتداد فترة طويلة، قبل أن تجهر بدعوتها، وتنطلق لتأسيس أوّل دولة شيعيّة في تاريخ الإسلام، ثمّ نتطرّق إلى الإيمان مُحوّرا تحويراً مُضاعفا مع فرقة الحشّاشين، ومُوظّفا لخدمة مصالح سياسيّة ضيّقة تتعلّق بشيخ الجبل وأتباعه ممّن راموا الانتقام من العبّاسيين، والسيطرة على الدولة الساسانيّة القديمة وشمال العراق، وذلك قبل أن نتطرّق إلى خصائص الإيمان عند الحشّاشين وطرق تعليمهم عقائدهم للمؤمنين من أتباعهم وربط ذلك بحاجاتهم السياسيّة وتطوّر صراعاتهم مع أجوارهم، من جهة ومع الصليبيين والمغول من جهة أخرى.

1– مفهوم الإيمان عند الشيعة: التطوير

إذا كانت عقيدة أهل السنّة تقوم على أركان خمسة، هي أركان الإسلام عندهم، بعد أن ثبت عن الرسول- في الصحيحين من حديث ابن عمر- أنّه قال: "بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت".[8] فإنّ عقيدة الشيعة تقوم على أركان سبعة يقول عنها القاضي النعمان قاضي قضاة المعزّ لدين الله الفاطمي وأشهر دعاته: "فقد رُوِينا عن أبي جعفر محمد بن علي أنه قال: بُني الإسلام على سبع دعائم هي الولاية، وهي أفضلها وبها وبالولي يوصل إلى معرفتها،

[8]- وهذه الأركان يدعمها سؤال جبريل في حديث الإحسان عن الإسلام وردّ النبيّ بقوله: "الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً."

والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد".[9] ويدعم هذا التوجّه ما يذكرون عن الإمام عليّ بن أبي طالب الذي أجاب لمّا سُئل عن الإيمان بقوله: "الإسلام الإقرار، والإيمان الإقرار والمعرفة فمن عرف الله نفسه ونبيّه وإمامه، وأقر بذلك فهو مؤمن".[10]

لقد كانت نشأة الشيعة الأولى نشأة سياسيّة بامتياز، إذ انتظموا في شكل حزب سياسيّ مثل غيرهم من الأحزاب، وارتبط ظهورهم بأحداث تاريخيّة محدّدة خاضوا فيها صراعات - بعضها دام - مع غيرهم من الأطراف التي اختلفت معهم حول قضايا محدّدة. وقد كانت التشكّلات السياسيّة في مرحلة الإسلام الأولى تنشأ على أساس الانتماء القبليّ أو العرقيّ أو القبليّ أو التعلّق بشخص "كارزمائيّ"، وهو ما حدث مع الشيعة، إذ تشيّعوا لعليّ زمن الفتنة الكبرى في خلافه مع معاوية ثمّ تدرّجوا في الموالاة والمشايعة، فقال أحفادهم: "بإمامته نصّا ووصيّة، إمّا جليّا أو خفيّا واعتقدوا أنّ الإمامة لا تخرج من أولاده فإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقيّة من عنده".[11] على حدّ قول الشهرستاني في الملل والنحل.

إنّ فهم الإيمان عند الشيعة مُرتبط في ظنّنا بفهم تطوّر نظرتهم إلى تعاليم الإيمان السنيّ وإعادة صياغتها بطريقة توائم علاقاتهم السياسيّة مع غيرهم من الفرق، لا سيّما بعد انتقالهم من حزب سياسيّ إلى حزب عقائديّ قائم على نظريّة مبتكرة أساسها الإمام المعصوم من الخطأ والمُحتكر لكلّ السُلط الدينيّة والمعرفيّة والسياسيّة. ولا يمكن للمرء أن يكون شيعيّا حتّى يؤمن بالإمام المعصوم أساسا وسندا للدين وضرورة رئيسة لا مندوحة من جعلها في أعلى سلّم عقائد المسلم، بل لا إيمان له من دونها.

ويبدو أنّ هذا الانتقال من التشيّع العاطفيّ للإمام إلى التعظيم والتقديس يستند إلى التطوّر التاريخيّ للصراعات التي عاشها أئمّة الشيعة وما حفّ بحيواتهم من أحداث وما ارتبط بنهاياتهم من مآسٍ. وقد جعل هذا التضخّم الإمام شخصا مُميّزا عندهم، مختاراً من الله لتحمّل هذه الأمانة الخطيرة، وهي استمرار النبوّة فيه بكامل صلاحياتها إلاّ نزول الوحي.[12] ومن أهمّ الأدلّة على ذلك أنّ المصنّفات الشيعيّة الشهيرة وجلّ فقهائهم وعلمائهم ومحدّثيهم يجعلون الإمامة قطب الرحى في نظريّاتهم، وأساس كلّ تفكير وتنظير وإيمان. وقد أدىّ بهم ذلك إلى تطويع الإيمان لصالح مشاغلهم السياسيّة الدنيويّة وتطوير "مقدّساتهم الإيمانيّة" في شكل ردود

[9]- القاضي النعمان: دعائم الإسلام، تحقيق آصف بن علي، الطبعة الثالثة، دار المعارف، القاهرة، (د ت).

[10]- انظر: محمد الخطيب، **الحركات الباطنية في العالم الإسلامي**، الطبعة الأولى، نشر وتوزيع مكتبة الأقصى، 1984، ص 100

[11]- أبو الفتح تاج الدين عبد الكريم الشهرستاني، **الملل والنحل**، تصحيح وتعليق :أحمد فهمي محمد، الطبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1990، ج1، ص 114

[12]- انظر: محمد بن يعقوب الكليني، **الكافي الأصول والفروع**، دار الكتب الإسلاميّة، مطبعة الحيدري، ط3، ج1، (د. ت)، ص ص 196-198

أفعال[13]، حتى قال الكثير منهم إنّ الإيمان لا يقبل إلاّ بالاعتقاد في الإمامة وتنفيذ التزاماتها العقائديّة: "وكلّ من أنكر إمامة أحد الأئمّة وجحد ما أوجبه الله تعالى من فرض الطاعة فهو كافر ضالّ مستحقّ للخلود في النار." وفق قول الشيخ المفيد محمد بن النعمان[14] في حين يذهب صاحب الكافي أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني أنّ من لا يعتقد في الإمامة مسلم وليس بمؤمن أو لم يبلغ الإيمان قلبه بعدُ.[15]

ويستند القائلون بهذا التكفير إلى المفهوم الإلهي للإمامة، وهو يعني عندهم أنّ الله قد اختار عليّ بن أبي طالب ليكون إماما للمسلمين بعد وفاة النبيّ محمد. وقد قام بتبليغ المسلمين بهذا الأمر الإلهيّ بعد نزول الآية الخامسة من سورة المائدة: "يا أيّها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته." ويعني هذا الفهم صراحة المساواة التامّة بين النبوّة والإمامة، باعتبار أنّ كليهما منصوص عليه من الله تعالى، والفرق بينهما هو الوحي فقط، لذلك يقول الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء في كتابه "أصل الشيعة وأصولها" إنّ الإمامة عند الشيعة هي: "منصب إلهيّ يختاره الله بسابق علمه بعباده كما يختار النبيّ ويأمر النبيّ أن يدلّ الأمّة عليه ويأمرهم باتّباعه ويعتقدون أنّ الله سبحانه أمر نبيّه أن ينصّ على عليّ وينصّبه علما للناس من بعده".[16]

وحتّى يستقيم الإيمان ينبغي للمؤمن الشيعيّ أن يعتقد في توريث الإمامة عن النبوّة سياسيّا باعتبارها وظيفة، وروحيّا باعتبار أنّ أئمّة آل البيت هم ورثة كتاب الله، وأنّ سلطتهم تشمل الأرض جميعها،[17] وأنّهم مكلّفون بهداية الناس وشرح الشريعة وتوضيح مقاصدها بعد الأنبياء فهي وفق عقيدتهم: "رياسة عامّة في أمور الدين والدنيا لشخص من الأشخاص نيابة عن النبيّ صلى الله عليه وسلّم".[18] لذلك: "نصّ الرسول محمد يوم الغدير على أنّ الإمام علي هو خليفته ثمّ يأتي من بعده الحسن والحسين ثمّ العليّ بن الحسين حتى نصل إلى الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري وهو المهدي المنتظر".[19]

---

[13]- بعض ردود الأفعال هذه راجعة إلى ما تعرّض إليه الإمام علي بن أبي طالب وأسرته وكبار آل بيته من إبادة وظلم وجور في التاريخ السياسيّ الإسلاميّ، فبقدر الظلم تضخّم التقديس وبقدر القهر توسّع الإيمان حتى قال قائلهم: "لو بقيت الأرض بغير إمام ساعة لساخت."

انظر: الكليني، **الكافي الأصول والفروع**، مصدر سبق ذكره، ص 179

[14]- الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان، **أوائل المقالات في المذاهب والمختارات**، دار المفيد للطباعة، بيروت، 1993، ص 44

[15]- الكليني، **الكافي**، مصدر سبق ذكره، ص 28

[16]- الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، **أصل الشيعة وأصولها**، مكتبة النجاح، القاهرة، 1958، ص 134

[17]- انظر: المظفّر محمد حسين، **الشيعة والإمامة**، المطبعة الحيدريّة، النجف، ط2، 1951، ص 21

وانظر كذلك: الكليني، **الكافي**، مصدر سبق ذكره، ص 270

[18]- الشيخ المفيد، **النكت الاعتقاديّة**، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1939، ص 47

[19]- انظر: الزنجاني، **عقائد الإماميّة الاثني عشريّة**، مؤسّسة الأعلميّ، بيروت، 1992، ج2، ص 277

ولعلّ اللافت للنظر في هذا المستوى، أنّ الشيعة تشبّثوا بمسألة قداسة الإمامة وتصدّرها أُسُس الإيمان عندهم. وأكّدوا كذلك أنّها تتجاوز مُجرّد المصلحة السياسيّة أو القضيّة الدنيويّة، لأنّها: "ليست قضيّة مصلحة تُناط باختيار العامّة وينتصب الإمام بنصبهم، بل هي قضيّة أصوليّة، وهي ركن الدين لا يجوز للرسل عليهم السلام إغفاله، وإهماله ولا تفويضه إلى العامّة وإرساله ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمّة وجوبا عن الكبائر والصغائر، والقول بالتولي والتبري قولا وفعلا وعقدا إلاّ في حال التقيّة".[20] على حدّ قول الشهرستاني.

وعن هذا التشبّث بالإمام نشأ الخلاف بين الشيعة وبين بقيّة الفرق الإسلاميّة، ولا غرابة أنّ هذه القضيّة الإيمانيّة الكبرى تعدّ أوّل قضيّة فقهيّة اختلف فيها المسلمون صراحة، وعلى أساس الموقف منها تشكّلت الفرق الإسلاميّة وتطوّرت الأحداث في التاريخ الإسلاميّ[21] لذلك احتاج الشيعة لإثبات وجهة نظرهم إلى أدلّة عقليّة وأدلّة نقليّة حول ضرورة الإيمان بالإمام مدخلاً للإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله. فمن الأدلّة العقليّة التي يوردها هؤلاء قولهم باستواء الأمر بين النبوّة والإمامة، وبما أنّ النبوّة هي حجّة الأرض على العباد لذلك لا تخلو الأرض من الحجّة إلى يوم القيامة. وقد اعتمد هؤلاء على حديث لأبي جعفر يقول فيه: "والله ما ترك الله أرضا منذ قبض آدم عليه السلام إلاّ وفيها إمام يهتدى به إلى الله وهو حجّته على عباده ولا تبقى الأرض بغير إمام حجّة لله على عباده".[22] وعلى هذا الأساس، يقول الشيعة باستحالة ترك الله الأرض دون إمام لطفا بعباده ورحمة منه بهم، ولذلك فهي واجبة عقلا قبل أن تكون واجبة شرعا، مادام الدليل العقليّ يسبق الدليل الشرعيّ عندهم.

أمّا الاعتقاد في نصّ الله على الإمام عليّ ليكون أوّل الأئمّة، كما بلّغ ذلك الرسول يوم الغدير، فيستتبع عقلا أن تنتقل هذه الوصيّة من الإمام عليّ إلى ابنه الحسن، والحسن أوصى إلى أخيه الحسين، وتتوالى الوصايا إلى الإمام الثاني عشر. ثمّ إنّ الاعتقاد في إمامة المهدي المنتظر الذي غاب الغيبة الكبرى سنة (329هـ) تدفع عقلا إلى الإيمان بالإمام ظاهرا أو مستورا.

---

[20]- الشهرستاني، **الملل والنحل**، مصدر سبق ذكره، ص 145

[21]- يقول الأشعري مثلا حول هذا الخلاف: "وأوّل ما حدث من اختلاف بين المسلمين بعد نبيّهم صلى الله عليه وسلّم اختلافهم في الإمامة وذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم لمّا قبضه الله عزّ وجلّ ونقله إلى جنّته ودار كرامته، اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة وأرادوا عقد الإمامة لسعد بن عبادة وبلغ ذلك أبا بكر وعمر رضوان الله عليهما فقصدا نحو مجتمع الأنصار في رجال من المهاجرين، فأعلمهم أبو بكر أنّ الإمامة لا تكون إلاّ في قريش واحتجّ عليهم بقول الرسول صلى الله عليه وسلّم "الإمامة في قريش"."

انظر أبو الحسن الأشعري، **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلّين**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، 1990

ويدعم هذا التوجّه الشهرستاني في الملل والنحل، حيث يقول: وأعظم خلاف بين الأمّة خلاف الإمامة إذ ما سلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينيّة مثل ما سلّ على الإمامة في كلّ زمان." (**الملل والنحل**، ص 13)

[22]- انظر: الكليني، **الكافي**، مصدر سبق ذكره، ص 179

ومن جهة أخرى، استند الشيعة إلى القرآن والسنّة لاستنباط الأدلّة التي تبرهن على ضرورة الإيمان بالإمامة، مثل الآية التي أجمع المفسّرون أنّها نزلت في عليّ بن أبي طالب: "إنّما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون." (المائدة: 55). ويستندون كذلك إلى آية التطهير: "إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا." (الأحزاب: 33). وهم يفسّرونها انطلاقا من فهم الرجس بأنّها الذنوب وأنّ الله قد طهّر أهل البيت من كلّ ذنب وخطيئة. وهذا يدلّ على عصمة الأئمّة التي لا ولاية لهم دونها. ومن الآيات الشهيرة التي يحتجّون بها آية المباهلة[23]: "فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ." (آل عمران: 61)، إذ يعتبر الشيعة أنّ الشخصيات التي خصّها الرسول بدعوته ليُباهل بها هي علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء والحسن والحسين. ويذهبون كذلك إلى أنّ تعيين شخصيات المباهلة ليس مسألة عفوية ومُرتجلة، وإنما هو اختيار إلهي هادف وعميق الدلالة. وقد أجاب الرسول حينما سُئل عن هذا الاختيار بقوله: "لو علم الله تعالى أنّ في الأرض عبادا أكرم من علي وفاطمة والحسن والحسين لأمرني أن أباهل بهم، ولكن أمرني بالمُباهلة مع هؤلاء فغلبت بهم النصارى".[24]

ثمّ إن ظاهرة الاقتران الدائم بين الرسول وأهل بيته تنطوي عندهم على دلالات فكرية وروحية وسياسية مهمّة ذلك أنّ مسألة المُباهلة في أدبيّات الشيعة ليست مسألة قرابة ونسب، بل هي إشعار رباني بحقيقة الامتداد في الإسلام الذي يمثله أهل البيت بما حباهم الله تعالى من إمكانات تؤهّلهم لذلك. أمّا المفردة القرآنية (أنفسنا) فهي من الألفاظ المُعتمدة عندهم لإثبات الإمامة فهذه اللفظة تستصفي عليّ بن أبي طالب لتجعله شخصيّة كاملة مُشابهة في الكفاءات والصفات لشخصية الرسول الأكرم باستثناء النبوة التي تمنح النبي خصوصية لا يشاركه فيها أحد مهما كان موقعه ومنزلته؛ فالإمام علي انطلاقا من هذه المشابهة الفكرية والروحية هو المؤهل الوحيد لتمثيل الرسول في حياته وبعد مماته.

أمّا بخصوص الأحاديث النبويّة، فيذكر الشيعة جملة من الأحاديث التي تحيل على نصّ الرسول صراحة على ولاية عليّ بن أبي طالب، لعلّ من أشهرها حديث غدير خم وحديث المنزلة. وقد اشتهر الحديثان عند الشيعة حتى صارا من شروط الإيمان عندهم، فلا يؤمن المرء حتىّ يُقرّ صراحة أنّ الرسول بايع علي بن أبي طالب يوم الغدير وعدّه خليفته بعد أن رفع يده وقال قولته الشهيرة: "من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، اللهمّ وال

[23]- تسمى الآية (61) من سورة آل عمران بآية المباهلة، والمعنى اللغوي للمباهلة هو الملاعنة والدعاء على الطرف الآخر بالدمار والهلاك، وقوله تعالى (نَبْتَهِلْ) أي نلتعن. وقد نزلت هذه الآية حسب تصريح المفسرين جميعاً في شأن قضية وقعت بين الرسول ونصارى نجران.

[24]- عبد الله السبيتي، **المباهلة**، طبعة مكتبة النجاح، طهران، (د ت)، ص 66

من والاه وعادي من عاداه، واخذل من خذله".[25] أمّا حديث المنزلة: "أنت منيّ بمنزلة هارون من موسي إلاّ أنّه لا نبيّ من بعدي." فهو دليل آخر على ولاية عليّ، لا سيما وأنّه حديث متّفق فيه، ويرويه الشيعة مثلما يرويه أهل السنّة كذلك و بالألفاظ نفسها تقريبا.

وصفوة ما يمكن أن يستنبط من مفهوم الإيمان عند الشيعة تطويرهم نظريّة الإيمان السنيّة وتركيزهم على قضيّة الإمامة لتكون مدخلا وسندا رئيسيّا للإيمان، فلا يؤمن الفرد حتى يقرّ صراحة بإمامة عليّ بن أبي طالب والأئمّة المعصومين من بعده. وقد أثبتنا أنّ هذا التطوير كان لصالح الصراعات السياسيّة التي خاضها أهل البيت والمتشيّعون لهم ضدّ السلطة الأمويّة ثمّ السلطة العبّاسيّة اللتين سعتا إلى التنكيل بهم وإلى محاولة لجم طموحاتهم السياسيّة. وقد أنتج هذا القمع والظلم ردّ فعل واضح في أدبيات الشيعة، إذ صار الأئمّة مقدّسين دينيّا وانتقلنا من فضاء سياسيّ مجاله الصراع والاختلاف إلى فضاء مقدّس مجاله التطوّر والنماء لا الثبات والاستقرار، وهو مجال تطوّع فيه السياسة الإيمان لمصالحها الخاصّة وتوظّفه لغاياتها. ومن أهمّ الأمثلة التي يمكن ذكرها على ذلك تحوير الشيعة الإسماعيليّة لمفهوم الإيمان الشيعي داخل دائرة الصراع السياسيّ العقديّ الشيعيّ - وقد بدأ ينشقّ إلى أحزاب ومذاهب مُختلفة عقديّا وسياسيّا - وكذلك مع غيرهم من الأحزاب.

2– مفهوم الإيمان عند الشيعة الإسماعيليّة: التحوير

لا مرية في أنّ تشكّل عقيدة الشيعة الإسماعيليّة - وهي تنسب إلى الشيعة الإماميّة - على علاقة وطيدة بالصراع السياسيّ الذي نشأ بينهم وبين الشيعة الاثني عشريّة-وهي من الفرق الإماميّة أيضاً- حول الأحقيّة بالإمامة وجدوى إعلانها ودخول سجون العبّاسيين بسببها، وحول أشكال ممارسة الإمام للسياسة وفكرة التقيّة وكيفيّة توظيفها.

وقد ارتكز هذا الخلاف الشيعيّ الشيعيّ أساساً حول خلافة الإمام السادس جعفر الصادق (ت148هـ)[26] ففي حين تعتبر الشيعة الاثني عشريّة أنّ الخلافة قد انتقلت بموت الإمام جعفر الصادق إلى ابنه الأصغر موسى الكاظم (ت183هـ)[27] ترى الشيعة الإسماعيليّة أنّ جعفر الصادق قد أعاد ليلة وفاته الإمامة إلى أصلها؛ أي إلى

[25]- الحديث مرويّ بطرق مختلفة وأشكال متعدّدة وهو عند الشيعة غيره عند السنّة والثابت أنّ الأدبيات الشيعيّة أولت هذا الحديث منزلة مهمّة في الاستدلال على ولاية عليّ. ويكفي أن نذكر أنّ الأميني قد جمع الحديث في أشكال رواياته المختلفة وفق روايات الصحابة والمؤرّخين في كتاب من 12 جزءًا بعنوان "الغدير".

[26]- هو جعفر بن محمّد وعرف بالصادق. أمّا الأئمّة من قبله فهم علي بن أبي طالب، فالحسن بن عليّ، فالحسين بن عليّ، فعليّ بن الحسين، فزين العابدين، ثمّ محمد الباقر.

[27]- بعد اختلافهم "السياسيّ" مع ابنه الأكبر إسماعيل بسبب طريقة نشره للدعوة الشيعيّة. وهناك من يقول أنّ الابن الأكبر مات في حياة والده لذلك انتقلت الإمامة إلى أخيه.

ابنه الأكبر إسماعيل، وأوصاه بالكتمان والتخفّي[28]. ومن هنا يتحوّر مفهوم الإيمان عند هذه الفرقة، ويختلف عن فهم الإيمان عند فرقة الشيعة الإثني عشريّة. فإذا كان الأئمّة عند الإثني عشريّة سلسلة من إثني عشر إماما تبتدئ بعليّ بن أبي طالب (ت40هـ) وتنتهي عند الإمام المُغيّب محمد المهدي (ت329هـ). فإنّها عند الإسماعيليّة سلسلة من سبعة أئمّة فقط تقف عند إسماعيل بن جعفر الصادق آخر الأئمّة والناسخ لشريعة رسول الله، وحتىّ من يقول من الشيعة إنّ إسماعيل مات في حياة والده ولم يكن في البصرة، كما يقول أتباعه عنه، فإنّ ذلك لا يعني أن تمرّ الخلافة إلى أخيه الأصغر موسى الكاظم، بل الأسلم أن تمرّ إلى ابنه محمد بن إسماعيل المكتوم[29]، وهو عند شقّ من الشيعة الإسماعيليّة سابع الأئمّة وفاتح العصر الجديد.

فالثابت أنّ أهمّ أسس الإيمان عند الشيعة الإسماعيليّة هو هذا الربط الوثيق بين النبوّة والإمامة، إذ مرّت النبوّة عندهم بستّة أدوار عظمى هي أدوار آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد في حين بدأ الدور السابع عندهم بظهور محمد بن إسماعيل المكتوم، وهو عندهم الفاتح أو صاحب الزمان، وقد عدُّوه في أدبياتهم آخر الأئمّة الناطقين[30]، وهو صاحب شريعة عطّلت بقيامها ظاهر شريعة الرسول.[31] وهم بذلك يؤكّدون أنّ: "الإمامة تولية إلهيّة، وأنها فرض من فروض الدين وتقابل الإيمان في الاعتقادات، وأنّها واجبة، إذ لا يتمّ اعتقاد أو شرع إلا بوجودها."[32] بل يتّهمون خصومهم الشيعة الإثني عشريّة بتهمة "البداء"، وهي تهمة تكفيريّة يُقصد منها تحويلهم الإمامة الإلهيّة عن اتّجاهها الطبيعيّ؛ أي من الأب إلى الابن الأكبر[33] نحو الأخ الأصغر في حالة الإمام السابع موسى الكاظم ومن ثمّ إلى أولاده من بعده. وهذا التغيير في المسار الإلهيّ هو البداء، وهو تدخّل من لا سلطة له - أي الإمام الأب - لتوجيه الإمامة إلى من لم يكلّفه الله - أي الابن الأصغر- ليتمّ بذلك -وفق هذا الفهم للإمامة- خرق مشيئة الله وتحريفها فتفقد الإمامة قداستها عند الشيعة الإثني عشريّة.

---

[28]- من يروي هذه الرواية ينفي أنّ إسماعيل مات في حياة والده، ويقدّم حكايات مختلفة عن ذلك منها أنّ أخاه - وكان طفلاً صغيراً- كشف الملاءة عن وجهه وهو ميت فأبصره مفتوح العينين، فجرى يقول لأبيه: عاش أخي، عاش أخي! فقال والده: إنّ أولاد الرسول كذا يكون حالهم في الآخرة. ولذلك أنكرت طائفة من الشيعة موت إسماعيل، وقالوا إنّ الأمر التبس على أبيه وظنه مات! وقالت جماعة إنّ أباه ادّعى موته تقيّة عليه، فقد خشي أن يُقصد بالقتل! ولذلك فقد جرى تحقيق رسمي في موته على غير المعهود؛ ثم إنّ بعضهم ادّعى أنّ هناك من رأى إسماعيل بالبصرة وقد مرّ على مُقعد فدعا له، فبرئ فرفعوا ذلك إلى المنصور، فبعث إلى جعفر الصادق مخبراً إيّاه أنّ إسماعيل ابنه من الأحياء، وأنّ هناك من رآه بالبصرة. للتوسّع انظر: عارف تامر، **تاريخ الإسماعيلية**، دار رياض الريس، لندن - قبرص، 1991، جزء 1، ص ص 48-60

[29]- محمد بن إسماعيل بن جعفر هو الإمام الإسماعيليّ المشهور بمحمد المكتوم، وقد تولّى بعده ابنه أحمد الرضي، وهو أوّل الأئمّة المستترين عند الشيعة الإسماعيليّة، ومرحلة الستر التي سبقت مرحلة تأسّس الدولة الفاطميّة بالقيروان من أكثر المراحل غموضا وإشكاليات، وذلك للخلط الذي حدث فيها بين أئمّة الستر وهم الأئمّة الحقيقيّون وأئمّة الاستيداع وهم من حمى أئمّة الستر وحمل المسؤوليّة عوضا عنهم.

[30]- قبل ظهور مرحلة الستر وهي من أغمض مراحل الشيعة الإسماعيليّة.

[31]- انظر: مثلا محمد بن أحمد الجوير، **الإسماعيلية المعاصرة**، نشر مكتبة الرشد، الرياض، السعوديّة، 2008، ص ص 83- 84

[32]- عارف ثامر: **الإمامة في الإسلام**، دار الكتاب العربي، بيروت، د ت، ص 64

[33]- تتبع الشيعة الإماميّة هذا الاتّجاه ولم تستثن إلاّ الإمام الحسين الذي انتقلت إليه الإمامة من أخيه الحسن معتمدين في ذلك نصّا ورد عن الرسول حيث قال: "الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا."

أمّا ما فعله الإسماعيليون فهو أنّهم حافظوا على جوهر الإيمان الحقيقيّ بمحافظتهم على ما هو إلهيّ، أي ما لا يخضع للشورى أو الأهواء أو الخيارات الذاتيّة مهما وقع حتىّ إن مات الإمام الوريث الشرعيّ في حياة والده؛ فالإمامة بهذا المعنى ثابتة لا تتغيّر ولا يحوّرها الزمان ولا المكان شأنها في ذلك شأن العلّة والمعلول الذاتيين اللذين لا ينفكّ أحدهما عن الآخر.

وأبرز ما يلفت الانتباه في ما سلف هو خوض الشيعة الإسماعيليّة عن معاني فلسفيّة نظريّة، يعيدنا بعضها إلى الإبستيمولوجيا (épistémologie) اليونانيّة وبعضها إلى الفكر الفلسفيّ الإسلاميّ، وهي من ركائز علم التأويل أو "علم الباطن" عندهم. وقد ضخّم العديد من دعاتهم على مرّ التاريخ هذا العلم وأقرّوه سنداً وأساساً من أسس المعرفة عند الإسماعيليّة وقوام الإيمان كذلك، فمن لا يؤمن بالتأويل - أي علم الباطن - هو إلى الكفر أقرب على حدّ قول الداعية الفاطميّ محمد بن طاهر الحارثيّ الذي يقول: "وقال الفاطميون إنّ لكلّ ظاهر باطنا، وأوجبوا الاعتقاد بالظاهر والباطن، وكفّروا من يعتقد بالظاهر دون الباطن".[34]

وقد ترتّبت عن هذا العلم الذي عُرفوا به[35] جملة من المُعتقدات والضوابط لا يكون المؤمن مؤمنا عندهم إلاّ إذا التزم بها، مفتاحها قولهم إنّ إسماعيل لم يمت، ولا يموت حتى يملك الأرض، ويقوم بأمر الناس، وأنّه القائم، لأنّ أباه أشار إليه بالإمامة، وأخبر أتباعه أنّه صاحبه، والإمام لا يقول إلاّ الحق.

وإنّنا حين نتدبّر أشهر عقائد الشيعة الإسماعيليّة التي تميّزوا بها عن غيرهم من الفرق الشيعيّة الأخرى كالزيديّة والاثني عشريّة[36] نلفيها تتلخّص في النقاط التالية:

♦ قولهم بضرورة وجود إمام معصوم، منصوص عليه من نسل محمد بن إسماعيل، ويصفون هذا الإمام بصفات ترفعه إلى مقام الألوهيّة، ويدفعون له الخمس من أرزاقهم، وهو عندهم وارث الأنبياء جميعا وكلّ من سبقه من أئمّة كما ذكرنا سابقاً.

♦ يقولون بتناسخ الأرواح وبأنّ الروح بعد الموت تنتقل إلى جسد آخر، ويعتقدون أنّ للتناسخ أربع مراتب تنتقل الروح خلالها بحسب أعمالها وأفعالها، فكلّما أحسنت أفعالها ارتفعت المرتبة، وكلّما فسدت تناسخت الروح في مرتبة أقلّ وهذه المراتب هي:

---

[34]- انظر: طاهر بن إبراهيم الحارثي اليماني، **الأنوار اللطيفة في حقيقة الفلسفة الفاطميّة**، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1970، ص 29

[35]- من أشهر تسمياتهم الفرقة الباطنيّة نسبة إلى علم الباطن.

[36]- هناك نقاط يشتركون فيها مع الزيديّة أو الاثني عشريّة خاصّة، وهناك نقاط يتميّزون بها عن غيرهم من الفرق الشيعيّة، وهناك نقاط يختلفون فيها عن بقيّة الفرق الشيعيّة في درجة القول بها والاعتقاد فيها ومستوى تصنيفها في عقائدهم.

- النسخ: وهو رجوع الروح إلى بدن إنسان آخر.

- المسخ: وهو رجوع الروح إلى بدن حيوان.

- الرسخ: وهو رجوع الروح إلى جسم نباتي.

- الفسخ: وهو رجوع الروح إلى جسم مادي حجري "جماد".

هذه المراتب في حال العذاب والتنازل، وأما المتصاعدة فقد تتخلّص من الأبدان لصيرورتها كاملة، وتتعلق ببعض الأجرام السماوية لبقاء حاجتها إلى الاستكمال. ويستتبع هذا الفهم إنكارهم البعث والمعاد الجثمانيّ والبرزخ وغير ذلك، ممّا يؤمن به بقيّة الفرق الإسلاميّة لا سيّما الفرق السنيّة مثل كلّ ما يتعلّق بالسؤال في القبر وعذابه ونعيمه.

♦ يقولون إنّ الأئمّة هم وجه الله ويد الله، وأنّهم هم الذين يحاسبون الناس يوم القيامة، بل ويقسّمونهم بين الجنّة والنار، وأنّهم هم الصراط المستقيم والذكر الحكيم والقرآن الكريم، ومن مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهليّة.

♦ ينكرون صفات الله وهو في نظرهم فوق متناول العقل، فهو لا موجود ولا غير موجود ولا عالم ولا جاهل ولا قادر ولا عاجز.

♦ يتبرّؤون من الشيخين عمر وأبي بكر، ويصفونهما بصفات قبيحة كإبليس وفرعون وهامان والطاغوت وهبل.

♦ يُؤمنون بالتقية والسريّة ويطبّقونهما في الفترات التي تشتد عليهم فيها الأحداث.

♦ ينكرون أن يكون القرآن وحياً، بل يعتقدون أنّه من المعارف التي فاضت على قلب النبي محمد. فالقرآن عندهم ليس كلام الله، وإنّما هو: "تعبير محمد عن المعارف التي فاضت عليه من العقل الذي هو المراد باسم جبريل ويُسمّى "كلام الله" تعالى مجازاً".[37] على حدّ قول الإمام الغزالي في كتابه فضائح الباطنيّة.

وغنيّ عن البيان أنّ هذا التحوير في معاني الإيمان، وتوجيه عقائد الناس نحو الإيمان بإمام حيّ لا يموت، وآخرين مستترين تارة، ومكشوفين أخرى، وكذلك القول بالتناسخ وإنكار صفات الله، ودفعهم إلى التبرؤ

[37]- أبو حامد الغزالي، **فضائح الباطنيّة**، طبع دار البشير، عمّان- الأردن، الطبعة الأولى، 1993، ص 27

صراحة من الإمامين، واعتماد التقيّة مبدأ وسياسة، هو في ظنّنا جوهر تطويع السياسة للإيمان؛ فالصراعات بين العبّاسيين والشيعة الإماميّة - بشقّيها الشهيرين الاثني عشريّة والإسماعيليّة- ومطاردة الخلفاء العبّاسيّين للأئمّة وسجنهم وتشريدهم وحتىّ قتلهم[38] كما فعل المنصور والهادي وهارون الرشيد كانت كلّها أسباباً وعللا أخذ بها الإسماعيليون، لتطويع إيمان الناس لمعتقدات تقوم على التقيّة والتأويل، وتُبني على الاختلاف مع المؤسّسة الرسميّة، ومكابرتها في كلّ صغيرة وكبيرة، والبحث عن الانتقام منها بشتىّ السبل. وسيتجلّى هذا العناد وهذه المواجهات التي احتاجت إلى توظيف السياسة للمؤمنين وإيمانهم مع طائفة الحشّاشين، أو فرقة الإسماعيليّة النزاريّة التي ستبني لنفسها صيتا وسمعة من خلال مواجهتها كلّ من اختلف معها مُعتمدة عقيدة مؤمنيها وسيلة لضرب مصالح السلطة المركزيّة والانتقام منها في الفترة المُمتدّة بين القرنين الخامس والسابع للهجرة كما سنرى في القسم الموالي.

3– مفهوم الإيمان عند الحشّاشين: التوظيف

فرقة الحشّاشين هي فرقة سياسيّة بامتياز؛ فقد مارست كلّ أشكال السياسة المتاحة لديها من مناورات وخداع واتّفاقات وهدن وصراعات واعتداءات وجرائم سياسيّة. وقد ذاع صيتها في المشرق العربيّ رديفا لفرق الموت والرعب. أمّا في الغرب الأوروبي، فقد صار اسم "حشّاش" قرينـاً لمصطلح القاتل المأجور (Assassin)، وتغنىّ بولاء الحشّاشين لشيخ الجبل شعراء التروبادور وأهل العشق والغرام[39] لما رأوه فيهم من طاعة وخنوع ومبالغة في الإيمان به.

ويستدلّ برنارد لويس على شهرة هذا المصطلح في أوروبا بجملة من الأمثلة منها ما وجده مُستعملا عند المؤرّخ الإيطالي جيوفاني فيلاّني (ت1348) في سياق حديثه عن حاكم لوركا الذي "أرسل حشّاشيه إلى بيزا لقتل أحد أعدائه". ومنها إشارة دانتي (Dante Alighieri) (1321م) في "الكوميديا الإلهيّة" (la Divine Comédie) ضمن النشيد التاسع من الجحيم إلى الحشّاش الخائن (Le Perfido Assassino). ويفسّر

[38]- من الأمثلة المشهورة التي يمكن الاستئناس بها قول المسعودي في مروج الذهب: "جمع المنصور أبناء الحسن وأمر بجعل القيود والسلاسل في أرجلهم وأعناقهم، وحملهم في محامل مكشوفة وبغير وطاء تماما كما فعل يزيد بن معاوية بعيال الحسين. ثم أودعهم مكانا تحت الأرض لا يعرفون فيه الليل من النهار، وأشكلت أوقات الصلاة عليهم، فجزأوا القرآن خمسة أجزاء، فكانوا يصلون على فراغ كل واحد من حزبه، وكانوا يقضون الحاجة الضرورية في مواضعهم، فاشتدت عليهم الرائحة، وتورّمت أجسادهم ولا يزال الورم يصعد من القدم حتى يبلغ الفؤاد، فيموت صاحبه مرضا وعطشا وجوعا."

انظر: علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1384هـ، *ج 3*، ص 117

[39]- يقول شاعر التروبادور الإسبانيّ لمحبوبته: "إنكِ تسيطرين عليَّ أكثر ممّا يسيطر أمير الحشّاشين بسحره على تابعه الذي يبعثه لاغتيال أعدائه".

انظر: كتاب برنارد لويس، الحشيشيّة ترجمة سهيل زكار، نشر دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2006، ص163

فرانشسكو دابوتي شارح دانتي في القرن الرابع عشر هذا المعنى قائلا: "الحشّاش هو الذي يقتل الآخرين مقابل أجر".[40]

أمّا في سجلاّت الصليبيّين، فقد عنت كلمة "حشّاشين" فرقة إسلاميّة غريبة في الشرق تتزعّمها شخصيّة غامضة تُعرف بشيخ الجبل، وهي فرقة مكروهة عند أعدائها من المسلمين والمسيحيّين على السواء بسبب عقائدها وأفعالها.

فكيف تسنّى لهذه الفرقة المنشقّة عن الشيعة الإسماعيليّة أن تطول كلّ هذا الصيت المرعب؟

أ- الحشّاشون والسياسة:

بعد سيطرة شيعيّة طويلة على أماكن شاسعة من الإمبراطوريّة الإسلاميّة شملت الشام ومصر وشمال إفريقيا وصقليّة والشاطئ الإفريقيّ للبحر الأحمر، بدأت جذوة الشيعة تتراجع مع عودة الإسلام السنيّ إلى الدفاع عن مكانته في هذه الإمبراطوريّة وتدخّل الأتراك قوّةً رادعة ومؤثّرة في المعارك السياسيّة والعسكريّة التي كانت مُتّقِدَةً على امتداد العصر الوسيط. وقد كانت بداية انهيار الدولة الفاطميّة مشفوعة باختلافات وانشقاقات طالت حكم الخليفة الثامن المستنصر بالله (ت487ه)، ممّا ألجأه إلى واليه على عكّا بدر الجمالّي لفرض هيبة الدولة من جديد. وبعد وفاته نشأت أزمة كادت تعصف بالسلطة الفاطميّة حول الأحقيّة بخلافته، فهناك من رأى أنّ الإمام من بعده هو ابنه أحمد المستعلي بالله (ت495ه) وهناك من رأى أنّ الإمام الحقيقيّ هو ابنه الآخر نزار المصطفى لدين الله (ت490ه) وبتدخّل ابن بدر الجمّالي الأفضل شاهنشاه[41] لصالح المستعلي جلس على عرش الفاطميين، فانقسمت بذلك الشيعة الإسماعيليّة إلى مُستعلية ونزاريّة. وسُجن نزار ثمّ مات في سجنه وفرّ ابنه الهادي إلى آسيا الوسطى والتحق بقلعة "آلموت" (Alamut Castle) وهناك نشطت الدعوة الإسماعيليّة بعد انضمام أشهر شخصياتها، وهو شيخ الجبل حسن الصباح (ت518ه) الذي نشر تعاليمه في تلك المناطق النائية ووجد آذانا صاغية في بلاد الديلم ومازندران وجبال دمغان وبلاد كوهستان ورودبار، لا سيما بعد تمكّنه النهائيّ من السيطرة على قلعة آلموت والقلاع القريبة منها.

إنّ طبيعة المواجهة السياسيّة والعسكريّة التي سينتهجها الشيعة النزاريّون في تلك المناطق ثمّ في كلّ إيران والشام هي التي ستحدّد طرق تطويع السياسة لمبادئ الإيمان لديهم، وهي التي ستنقلنا إلى أشكالٍ مباشرةٍ من

[40]- انظر: برنارد لويس، **الحشّاشون فرقة ثوريّة في تاريخ الإسلام**، تعريب محمد العزب موسي، نشر مكتبة مدبولي، الطبعة الثانية، القاهرة، 2006، ص ص 14-16

[41]- صار قائد قوّات الجيش بعد أن نصّبه والده عوضا عنه قبل موته.

توظيف المؤمن وإيمانه لخدمة المصالح السياسيّة، لا سيما أنّ أفعالهم ستجرّ إليهم عداءً شديدًا من الخلافة العبّاسيّة والخلافة الفاطميّة والسلْطنات الكبرى التابعة لهما، مثل السلاجقة والزنكيين والأيوبيين إضافة إلى الصليبيين. لذلك ولغيره كان لابدّ على النزاريّين من تطوير استراتيجيّاتهم العسكريّة والتعامل مع الأعداء كيفا لا كمًّا، وعبر مُواجهات نوعيّة تعتمد على الاغتيالات التي يقوم بها "فدائيّون" لا يأبهون بالموت في سبيل تحقيق أهدافهم، حيث كان هؤلاء الفدائيّون يُلقون الرعب في قلوب الحكّام والأمراء المعادين لهم، وتمكّنوا من اغتيال العديد من الشخصيات المؤثّرة آنذاك، مثل الوزير السلجوقي الحسن بن إسحاق المُلقّب بنظام الملك والخليفة العباسي المسترشد والخليفة العباسي الراشد وملك بيت المقدس كونراد أوف مونتفيرات (Conrad of Montferrat) إضافة إلى محاولات كثيرة لاغتيال صلاح الدين الأيوبي. فكيف تسنىّ لهم ذلك؟

إنّ من أهمّ أساليب الحشّاشين عند تنفيذهم عمليّات الاغتيال: "الاختباء في ملابس الصوفية أو ارتداء ثياب النساء أو المُكدّين والدراويش، أو انتظار المطلوب قتله بين صفوف المُصلّين، أو الزعم أنّهم من طالبي الحاجات أو عابري السبيل".[42] وقد يصل الأمر بهم حدّ العمل داخل القصور مُتخفيّن بأسماء مُستعارة، حتّى تحين فرصة الانقضاض على الضحيّة، عندها يعترضون ضحيّتهم حتىّ وهو بين حرسه ورجال أمنه أو داخل معسكرات الجيش مستخدمين أشكالا من الخدع منها رسائل التوسّط لقضاء حاجة حاملها. وعندما يقترب الحشّاش المُنفّذ من المطلوب قتله يغرز الخنجر الذي كان قد تسلّمه من شيخ الجبل في جسد المغدور. ولا يتردّد القاتل في التضحية بنفسه أو بكلّ السريّة المنفّذة للعمليّة إن اقتضى الأمر.

كانت أول عمليّة اغتيال قام بها الحشّاشون بعد مرور سنتين على استقرار شيخ الجبل حسن الصباح إلى قلعة آلموت. وقد قتلوا فيها وزير السلاجقة نظام المُلْك سنة 485هـ، وهي العمليّة التي دافع عنها ابن الأثير، واعتبرها من عمليات الدفاع الشرعيّ عن النفس، لذلك يقول في كتابه "الكامل في التاريخ": "لمّا بلغ الخبر[43] إلى نظام المُلْك بعث عسكراً إلى قلعة ألموت فحاصروه فيها، وأخذوا عليه الطرق، فضاق ذرعه بالحصار، فأرسل مَنْ قتل نظام المُلْك، فلما قُتل رجع العسكر عنها".[44] وقد روى أبو الفداء إسماعيل بن شاهنشاه (ت732ه) عملية الاغتيال هذه في مؤلّفه الشهير "المختصر في تاريخ البشر" قائلا: "لمّا كان عاشر رمضان من هذه السنة بعد الإفطار، وهم بالقرب من نهاوند، وقد انصرف نظام المُلْك إلى خيمة حرمه، وثب عليه صبي ديلمي في صورة مُستعطٍ، وضرب نظام المُلْك بسكّين، فقضى عليه، وأدرك أصحاب نظام المُلْك ذلك الصبي

[42]- ابن الأثير الجزري، **الكامل في التاريخ**، تحقيق إحسان عبّاس، طبعة دار صادر بيروت، 1973م، ج4، ص 25

[43]- أي الاستيلاء على قلعة آلموت.

[44]- ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، سبق ذكره، ج4، ص 33

فقتلوه، وحصل للعسكر بسبب مقتله شوشة، فركب السلطان وسكن العسكر".[45] وكانت عمليّة الاغتيال هذه أجرأ عملية اغتيال قاموا بها قبل عملية اغتيال الخليفة العبّاسي المُسترشد بالله، رغم ما قيل عن تواطؤ خفيّ من السلطان السلجوقي "ملك شاه" معهم لقتل وزيره الذي كان مختلفا معه سياسيّا، وشعر بخطورته وخطورة أولاده على مراكز السلطنة.

ومن أهمّ عمليات الاغتيال السياسيّ التي قاموا بها كذلك اغتيالهم أمير الريّ في دار الوزير فخر المُلْك بن نظام المُلْك، ولما مثَلَ القاتل حياً أمام الوزير قال له: "إنّنا قد أنفذنا إلى ستة نفر أحدهم أخوك وفلان وفلان، فقال له: وأنا في جملتهم؟ فقال: أنت أقلّ من أن تذكر، أو ندنّس نفوسنا بقتلك. فعذّب على أن يقرّ من أمره بذلك، فلم يقرّ فقتله". وقد ترصّد الحشّاشون بعد ذلك الوزير فخر المُلْك سبع سنوات كاملة، ثمّ جاءت سنة خمسمائة للهجرة فباغت حشّاش منهم هذا الوزير متنكّرا في هيئة مُتظلّم وقد رفع صوته بالشكوى: "ذهب المسلمون، ما بقيَ مَنْ يكشف ظلامه، ولا مَنْ يأخذ لضعيف حقّاً، ولا مَنْ يفرج عن ملهوف" انتبه إليه الوزير، وهو يهمّ بالخروج من دور بعض نسائه، فلمّا أدناه منه: "دفع إليه رقعة فبينما هو يتأمّلها ضربه بسكّين في مقتله فقضى نحبه وهو بين حراسه" أمّا الحشّاش فكان مصيره أن: "فُصّل على قبر فخر المُلْك عُضواً عضواً." كما يذكر ذلك ابن التغري بردي في كتابه "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة".[46] ويستنتجُ ابن التغري بردي أنّ تعرّض نظام المُلْك لفرقة الحشّاشين كان كارثيّا عليه وعلى أولاده الوزراء من بعده، فبعد مقتله ومقتل ولده تعرض ولده الآخر "نظام المُلْك أحمد" لضربة سكّين بعنقه نجا منها بأعجوبة فلمّا قبض على الحشّاش الذي حاول قتله سقاه خمراً، فأقرَّ على: "جماعة من الباطنيّة بمسجد في محلّة المأمونيّة، فقُتلوا وقتل معهم".[47]

ومن الاغتيالات الناجحة التي يرويها المؤرّخون كذلك ما فعله ثلاثة من الحشّاشين بوالي حمص جناح الدولة سنة 495ه، إذ هاجموه أثناء أداء الصلاة فأردوه قتيلاً. واستعد عشرة منهم لاغتيال الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله (496هـ) فاختفوا في بيت استأجروه يتحيّنون الفرصة لقتله، ولكنّ الحرس استنفر في طلبهم بعد بلوغ مخطّطهم إلى الخليفة فرموا رأس أحدهم ليستدلّوا به على تعرّف الحراس على وجوههم من عدمه. ويروي ابن التغري بردي رواية عجيبة سنعود إلى تفصيل دلالاتها في قسم لاحق حول تضحية حشّاش منهم بحياته لاختبار اكتشاف مخطّطهم من قبل الخليفة الفاطميّ، قائلا: "قال أحدهم: أليس هذا من مصلحتنا ومصلحة مَنْ تلزمنا طاعته؟ فقالوا: نعم، فقال: وما دللتكم إلاّ على نفسي، وشرع في قتل نفسه بيده بسكّين في جوفه فمات في

[45]- أبو الفداء إسماعيل بن شاهنشاه، **المختصر في أخبار البشر**، الطبعة الحسينيّة المصريّة، 2010، ج3، ص 39

[46]- ابن التغري بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، طبعة دار الكتب العلميّة، بيروت، 1992

[47]- نفسه، ج8، ص 142

وقته، فأخذوا رأسه ورموه في الليل بين القصرين".[48] ثمّ واصل التسعة الباقون تنفيذ المهمة بعد اطمئنانهم إلى عدم التعرّف على رأس صاحبهم فجمعوا المعلومات الكافية حول حركة الخليفة: "ليجدوه يتردّد على مكان يُعرف بجزيرة الروضة، ولا يصله إلاّ بعد اجتياز جسر. وفي اليوم الموعود اجتمعوا في فرن فرّان قريب من المكان، ابتاعوا منه فطيراً بسمن العسل، ولما سمعوا بوصول الموكب هبُّوا إلى رأس الجسر حيث يتأخّر الحرس عادة لمرور الخليفة، فوثبوا عليه بالسكاكين، ولتأكيد قتله ركب أحدهم وراء ظهره وضربه عدة ضربات بخنجره. مات الخليفة بعد حمله إلى قصر اللؤلؤة، أما التسعة فقتلوا في الحال جميعاً.[49]

وإلى جانب اغتيال الوزير فخر المُلْك ومحاولة اغتيال أخيه "نظام المُلْك أحمد" نجح الحشّاشون في القرن السادس الهجري في اغتيال أمراء ووزراء وحكّام ولايات كُثر، فمن العمليّات التي يذكرها المؤرّخون تنكّر أحد الحشّاشين في زيّ أحد المُكدّين وتعرّضه للأمير مورود مبعوث السلطان السلجوقي محمد شاه إلى الصليبيّين بعد وصوله الجامع وطلب منه شيئاً ثم "ضربه في فؤاده فمات".[50]

وحتىّ بعد موت شيخ الجبل حسن الصباح (518ه) وبعد سقوط أحصن قلاعهم "قلعة آلموت"[51] بيد السلطان مسعود السلجوقي سنة (524هـ) لم تتوقّف الاغتيالات منهجا وسياسة عند الحشّاشين. فقد تم سنة 519هـ اغتيال حاكم الموصل "اقسنقر البرسقي" داخل الجامع عندما هاجمه ثلاثة حشّاشين مُتخفّين في زيّ متصوّفة رغم احترازه من الموت غيلة وحيطته من الخيانة فقد كان يُوظّف حرسا خاصّا ويكثر من شراء السلاح ولبس الدروع كما يذكر ابن التغري بردي في النجوم الزاهرة. أمّا سنة 521هـ فقد قتلوا وزير الأمير سنجر بدمشق بعد أن شنّ حملة كبيرة لمطاردتهم. وقد خطّطوا للأمر: "ببعث سائس يخدم خيله حتى وجد الفرصة المناسبة عندما دخل الوزير يوماً يفتقد خيله فوثب عليه المذكور فقتله وقُتل من بعده".[52] وفي السنة 525هـ أفلت صاحب دمشق تاج الملوك توى بن طغتكين من الاغتيال وأصيب بجرحين أحدهما برئ منه والآخر ظل "ينسر عليه".[53]

---

[48]- نفسه، ج8، ص 159

[49]- نفسه، ج8، ص 161

[50]- نفسه، ج8، ص 162

[51]- قلعة "عش النسر" مثلا واحدة من مئات القلاع التي لم تسقط كاملة إلا بيد المغول عندما زحفوا من الشرق الأدنى وأسقطوا قلاع الحشّاشين واحدة بعد الأخرى حتى وصلوا بغداد السنة 656ه

[52]- ابن التغري بردي، **النجوم الزاهرة**، سبق ذكره، ج8، ص 168

[53]- أبو الفداء، **المختصر في تاريخ البشر**، سبق ذكره، ج3، ص 112

ولعلّ اغتيالهم السياسيّ الأهمّ بعد قتلهم الوزير نظام المُلْك والخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمي، هو قتلهم الخليفة العباسي المسترشد بالله (سنة 528هـ) بمدينة مراغة الإيرانية عاصمة أقليم أذربيجان أثناء قيادته لحملة عسكرية ضد السلطان مسعود السلجوقي. ويروي ابن التغري بردي وأبو الفداء الرواية ذاتها عن خبر مقتله، حيث: "كانت خيمته مُنفردة عن العسكر، فقصده أربعة وعشرون رجلاً من الباطنيّة، ودخلوا عليه، فقتلوه وجرحوه ما يزيد على عشرين جراحة، ومثّلوا به وجدعوا أنفه وأذنيه، وتركوه عرياناً ثمّ خرج الباطنيّة والسكاكين بأيديهم فيها الدم، فمالت العسكر عليهم فقتلوهم وأحرقوهم".[54]

واعترض حشّاش مُتنكّر في صورة امرأة طريق جوهر خادم السلطان سنجر شاه بن ملكشاه السلجوقي، ووكيله في الدولة مستغيثاً من ظلم لحقه، وما أن اقترب من جوهر: "حتىّ رمى ثياب المرأة ووثب عليه و قتله، فقتله خدم جوهر في الوقت".[55]

ثمّ تمكّنت خناجرهم كذلك من قتل صاحب أذربيجان السلطان داود بن محمود شاه السلجوقي الذي: "ركب يوماً في سوق تبريز، فوثب عليه قوم من الباطنيّة فقتلوه غِيلة، وقتلوا معه جماعة من خواصّه".[56]

يتّضح من خلال ما تقدّم البحث فيه أنّ الحشّاشين مارسوا سياسة الإرهاب والاغتيال حتىّ لم يبق سلطان أو قائد أو وزير بمأمن من خناجرهم. وقد كانت انتصاراتهم السياسيّة مُجسّدة في عمليّات نوعيّة منتقاة بمهارة، ومنفّذة بأناة وصبر وتضحية كبيرة منها ما ذكرنا من قتل الآمر بأحكام الله الفاطمي، وتمزيق المسترشد بالله العباسي، وذبح بعض سلاطين ووزراء السلاجقة. ولم يقف الأمر عند هؤلاء بل طالت خناجرهم سنة1192م أوّل ضحيّة مسيحيّة لها، وهو أمير مملكة القدس اللاتينيّة كونراد أوف منتفيرات. ثمّ تمكّنت سنة 571هـ من الوصول إلى صلاح الدين الأيوبي وهو يتفقّد جيشه في قلعة أعزاز شمال حلب حيث: "جاءه ثلاثة في زيّ الأجناد، فضربه واحد بسكين في رأسه فلم يجرحه، وخدشت السكين خدَّه، وقُتل الثلاثة فترك صلاح الدين القلعة إلى حلب إثر هذه العملية".[57]

وقد ساهمت كلّ تلك الاغتيالات أو العمليّات الفدائيّة في إشاعة نوع من الخوف والخشية منهم في المناطق المحيطة بهم، وفي انتشار حكايات مضخّمة عنهم أساسها الانبهار من هذا الإيمان العجيب للحشّاش الذي يدين بالولاء والفداء لمن أوكل إليه تنفيذ مهمّته والموت من أجلها. وقد ساهمت هذه الحكايات المبتورة وعالم

[54]- ابن التغري بردي، **النجوم الزاهرة**، سبق ذكره، ج8، ص 178
[55]- نفسه، ص 182
[56]- نفسه، ص 184
[57]- نفسه، ص 212

الغموض الذي يحفّ بالمكان الذي ينطلق منه هؤلاء في نحت صورة مُميّزة للحشّاش المُؤمن في تلك الفترة، سنسعى إلى محاولة استصفاء بعض خصائصها في العنصر الموالي.

ب- خصائص الإيمان عند الحشّاشين: صورة الحشّاش المؤمن

إنّ الحشّاش المؤمن هو حشّاش وضع حياته في خدمة قضيّة دينيّة عادلة يؤمن بها ويذود عنها، وهو مستعدّ للموت في سبيل نجاحها، بل هو يفتخر كلّ الفخر بالموت في سبيل هدف نذر له حياته. وهذا الاستعداد النفسيّ للحشّاش له تفسيرات مختلفة، منها أنّه يجد جذوره في العمق الشيعيّ الذي تستصرخ فيه دماء الأئمّة العلويين الانتقام بعد أن تعرّض أغلبهم إلى الموت والتشريد، ومنها ذلك الانضباط المُميّز لأنصار هذه الفرق السريّة، وتعوّدهم الوفاء بالوعود وجعل إيمانهم بمبادئها أفعالا تنفّذ دون نقاش ولا جدال.

وعليه، فلا عجب أن تتحوّل عمليات الاغتيال السياسيّ عندهم إلى طقوس مقدّسة لا تقلّ قيمة عن الصلاة والزكاة والحجّ، بل هي في مكان أعلى من بقيّة الطقوس لأنّها قمّة الجهاد والعطاء، وهذا ما نلحظه في أسلوب القتل المُتّبع الذي يتمّ دائما بالخنجر الذي يُسلّم إلى الفدائيّ من قبل شيخ الجبل. وهم: "ولم يلجؤوا مطلقا إلى القتل بالسمّ أو بالسهام بالرغم من أنّ القتل بهذه الطرق البديلة يكون في بعض الحالات أكثر سهولة وأمنا. وكان الحشّاش القاتل يمسك به في كلّ الحالات تقريبا فلا يحاول الهرب، بل هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنّهم كانوا يعتبرون البقاء على قيد الحياة بعد إنجاز المهمّة أمرا مخجلا".[58]

وبناء على ذلك، لا يمكن اعتبار هذا الحشّاش مجرّد قاطع رقاب أو قاتلا محترفا يُمارس مهمّته في سبيل هدف منشود، بل هو "ذات سياسيّة دينيّة" مُؤمنة بقضيّة عادلة، وصاحب مشروع سياسيّ هو إقامة دولة العدل بعد دولة الجور والفساد. وهذا لا تحقّقه إلاّ إمامة حقيقيّة تبشّر بالخلاص وتعد بالعدل والمساواة والرخاء وكلّ هذا يجعل من صورة المؤمن خاضعة لجملة من الشروط التي ينبغي توفّرها حتّى يستقيم الوعد ويجهز صاحبه لأداء مهامه، ويكون خنجرا مغروسا في قلب الظلم ومُرهبا للعدوّ ومُحبطا لمظالمه ومن أهمّ هذه الشروط ما يمكن ضبطه في العناصر التالية:

***- الإيمان بشيخ الجبل:**

إنّ من أهمّ مكوّنات عقيدة المؤمن من الشيعة النزاريّة، ما ترسّب في وجدانه من إيمان "أعمى" بشيخ الجبل. ويُعدّ هذا المكوّن العقديّ امتدادا طبيعيّا لإيمانه بإمام زمانه ومبايعته على الولاء والطاعة؛ فشيخ الجبل

[58]- برنارد لويس، **الحشّاشون، فرقة ثوريّة في تاريخ الإسلام**، تعريب محمد العزب موسى، سبق ذكره، ص 186

هو المُستأثر بعلوم الزمان وأسرار الكون من صاحبه إمام الزمان، وهو مهندس العقيدة والمُطّلع - أو العارف - والوسيط بين الإمام وعامّة أتباعه، فلا يُقبل إيمان دون اعتقاد في حكمة هذا الرجل وعصمته وتفويض الإمام المطلق له.[59] وهذا ما نلحظه في قلعة آلموت مع حسن الصباح[60] أو في سوريا مع الشيخ راشد الدين سنان.[61]

ومن أشهر الأمثلة الدالّة على ذلك ما يذكره المؤرّخ الصليبيّ وليم الصوري (Guillaume de Tyr) (ت1185م) في الموسوعة الشاميّة للحروب الصليبيّة عند حديثه عن زيارة الكونت هنري دو شومباني (Henri de Champagne) ملك مملكة القدس لراشد الدين سنان شيخ الجبل في قلعة الكهف، وهو في طريقه إلى طرسوس. فبعد حوار بينهما عن طاعة الرجال لقادتهم يقول سنان: "لكنّ رجالك لا ينفّذون أوامرك مثلما ينفّذ رجالي أوامري وسأريك ذلك. ثمّ أمسك حربة بيده وأشار بها إليهم فما كان من الذين كانوا واقفين على

---

[59]- انظر: محمد مؤنس عوض، **البستان الجامع مصدرًا لتاريخ الإسماعيلية النزارية في بلاد الشام في القرن 6 هـ/ 12** م، ط 1، القاهرة، 1982

[60]- حسن الصباح: ولد بالري عام 430 هـ 1037 م، بعض المؤرّخين ذكروا أنّه ولد في قم معقل الشيعة الاثني عشرية، حيث نشأ في بيئة شيعية اثني عشرية ثم انتقلت عائلته إلى الري مركز نشاطات طائفة الإسماعيلية، فاتّخذ الطريقة الإسماعيلية الفاطمية وعمره سبع عشرة سنة، استمر حسن في قراءة كتب الإسماعيلية، وبعد ذلك لقي معلما إسماعيليًا آخر، فلقّنه التعاليم الإسماعيلية حتى اقتنع، ولم يبق أمامه سوى أداء يمين الولاء للإمام الفاطميّ. لكنّه أدّى تلك اليمين أمام مبشّر إسماعيلي نائب عن عبد الملك بن عطاش كبير الدعاة الإسماعيليّين في غرب إيران والعراق، وفي أوائل صيف 1072م وصل عبد الملك بن عطاش لمدينة الريّ، فلقيه حسن الصباح، ثم وافق على انضمامه للطائفة الإسماعيليّة، وحدّد له مهمّة معيّنة في الدعوة، وطلب منه السفر إلى مصر لكي يسجل اسمه في بلاط الخليفة الفاطمي بالقاهرة.

ترك حسن مدينة الريّ سنة 1076م ورحل إلى أصفهان ثم اتّجه صوب أذربيجان، ومنها عرج على ميافارقين، فبقي فيها إلى أن طرده قاضي المدينة بعدما أنكر حسن سلطة علماء السنّة، وأصرّ على أنّ الإمام وحده هو الذي لديه الحق في تفسير الدين، فأكمل رحلته إلى فلسطين عن طريق أرض الجزيرة وسوريا وبيروت، ومن هناك رحل بحرا إلى مصر في 19 صفر 471 هـ / 30 أغسطس 1078.

بقي حسن في مصر حوالي ثلاث سنوات ما بين القاهرة وإسكندرية، ثم قيل بأنّه اختلف مع أمير الجيوش بدر الدين الجمالي، فسجنه ثم طرده من مصر، فذهب إلى إيران وتنقّل داخلها مستكشفا لها لمدة تسع سنوات، حتّى بدأ دعوته في إقليم الديلم ومازندران وقد كان لها بعض النجاح، وقد كان حسن يتفادى المدن في تنقلاته، ويفضل أن ينتقل عبر الصحراء، حتى استقرّ في دامغان وحولها قاعدة له يبعث منها الدعاة إلى المناطق الجبليّة لجذب السكان من هناك، واستمر بذلك لمدة ثلاث سنوات حتى انكشف أمره، وأمر الوزير نظام الملك باعتقاله، ولكنّه أفلت وهرب إلى قزوين.

لم يكن كلّ هم حسن الصباح في تنقّلاته هو نشر دعوته وكسب الأنصار فحسب، بل أيضاً العثور على مكان مناسب يحميه من مطاردة السلاجقة ويحوّله إلى قاعدة لنشر دعاته وأفكاره، وقد عزف عن المدن لانكشافها، لذا لم يجد أفضل من قلعة أَلَمُوت المنيعة. فهي حصن قديم فوق صخرة عالية وسط الجبال على ارتفاع 2,100 متر (6,900 قدم). وبنيت بطريقة أن لا يكون لها إلاّ طريق واحد يصل إليها، ويلف على المنحدر مصطنع (المنحدر الطبيعي صخوره شديدة الانحدار وخطرة)، لذلك أيّ غزو للحصن يجب أن يحسب له لخطورة الإقدام على هذا العمل. وقصة دخول حسن الصباح هي كما ذكرها ابن الأثير: "أنّ الحسن الصباح كان يطوف على الأقوام يضلهم فلمّا رأى قلعة أَلَمُوت واختبر أهل تلك النواحي، أقام عندهم وطمع في إغوائهم ودعاهم في السر وأظهر الزهد ولبس المسح، فتبعه أكثرهم، والعلويّ صاحب القلعة حسن الظن فيه يجلس إليه يتبرّك به، فلمّا أحكم الحسن أمره دخل يومًا على العلويّ بالقلعة فقال له ابن الصباح: اخرج من هذه القلعة. فتبسم العلويّ وظنه يمزح فأمر ابن الصباح بعض أصحابه بإخراج العلويّ، فأخرجوه إلى دامغان، وأعطاه ماله، وملك القلعة."(ابن الأثير الكامل في التاريخ). وقيل إنّه اشتراها منه ب 3000 دينار ذهبا. وقد بقي فيها بقيّة حياته ولم يخرج من القلعة مدة 35 سنة حتى وفاته، حيث كان جل وقته يقضيه في القراءة ومراسلة الدعاة وتجهيز الخطط. وكان همّه كسب أنصار جدد والسيطرة على قلاع أخرى. لذلك استمرّ بإرسال الدعاة إلى القرى المحيطة برودبار المجاورة، وإرسال المليشيات لأخذ القلاع عن طريق الخدع الدعائيّة، وإن فشلوا بذلك، فإنّهم يقتلون الناس ويرتكبون المجازر، وقد أخذوا الكثير من القلاع والأماكن الصالحة لبناء القلاع الحصينة، وقد تمكّن حسن الصباح من الاستيلاء على قلعة لمبسر عن طريق هجمات مليشياته عليها ما بين عامي 1096 و 1102 بقيادة عامله "كيا بزرجميد" وحكمها عشرين عاما، وقد كانت قلعة إستراتيجية مهمة وقائمة على صخرة مدوّرة تطل على شاه رود، وعن طريقها تمكّن حسن الصباح من الاستيلاء على كلّ منطقة رودبار. توفّي الصباح عام 518 هـ/1124 م في قلعته، واختلفت المصادر عن مصير ذرّيّته (المصادر الغربية وبعض المصادر العربية تذكر أنّه قتل أولاده في حياته) إلاّ أنّ المصادر كلّها أجمعت على أنّه مات من غير جناية. وخلفه بزرك أميد (برزجميد)، وكلّف ناسا بشؤون الدعوة والإدارة وقيادة القوات، وطلب منهم التعاون مع بعض حتى ظهور الإمام المستتر ويتولى شؤون الطائفة. توفّي شيخ الجبل حسن الصباح في 7 ربيع الثاني 518 هـ 23 / مايو 1124 في قلعة ألموت.

للمزيد من التوسّع انظر: http://ar.wikipedia.org/wiki/ حسن الصباح

[61]- سنان بن سلمان بن محمد بن راشد مقدم الإسماعيلية وصاحب دعوتهم في قلاع الشام أصله من البصرة، كان في حصن ألموت، قرأ كتب الفلسفة والجدل وانتقل إلى الشام في أيام السلطان نور الدين محمود، فجدّ في إقامة الدعوة إلى مذهبه واستولى على عدّة قلاع بالشام، أقام فيها ثلاثين سنة، وإليه تنسب الطائفة السنانيّة، توفّي سنة 588 هـ، وهو عند الإسماعيلية أحد الأئمة الذين ينحدرون من نسل الإمام أحمد الوفي، وقبره في قمّة جبل مصياف (جبل المشد أو المشهد العالي)هو وأبوه واثنين من الأئمة الإسماعيلية. توفّي عام 1192م-1193م ليخلفه فارسي يدعى نصير.

ظهر القلعة إلاّ أن ألقوا بأنفسهم في القناة فتحطّمت أجسامهم فعندما رأى الأمير هنرى ذلك رجاه ألاّ يكرّر هذا العمل ثانية فأشار إليهم فتوقّفوا عن رمي أنفسهم. ودخلوا القلعة(...) فألقى بملاءة كانت في يده كان قد أخذها من الرجال الواقفين أمام الباب فألقى ثلاثة أو أربعة من رجاله بأنفسهم خلفها، وانقضّوا عليها فماتوا، فرجاه الكونت هنري أيضا بالتوقّف وأن لا يفعل ذلك ثانية".[62]

وينقل ابن الجوزي في كتابه "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم" خبرا شبيها نصّه بهذه الحكاية عن الشيخ حسن الصباح فيقول: "قال لجماعة من أصحابه أمام رسول ملك شاه السلجوقي إليه: "أريد أن أنفذكم إلى مولاكم في قضاء حاجة فمن ينهض لها؟" فاشرأبّ كلّ واحد منهم لذلك، وظنّ رسول السلطان أنّها رسالة يحمّلها إيّاهم، فأومأ إلى شاب منهم، فقال له: اقتل نفسك، فجذب سكينة وضرب بها غلصمته فخر ميتاً. وقال للآخر: ارم نفسك من القلعة، فألقى نفسه فتمزق، ثم التفت إلى رسول السلطان، فقال: أخبره أنّ عندي من هؤلاء عشرين ألفاً هذا حدّ طاعتهم لي، وهذا هو الجواب".[63]

يُثبت هذان الشاهدان المُطوّلان معنى الإيمان عند الحشّاش من خلال النظر في نتيجة هذا الإيمان؛ فالمؤمن هنا لا يجد غضاضة في دفع حياته ثمنا لمعتقده لمجرّد إشارة بسيطة من شيخ الجبل ودون أدنى تردّد أو تفكير. إنّ هذا الإكراه هو أقسى أشكال الجبر في الممارسة الدينيّة، فهو إكراه على الموت والانتحار، لذلك يتطلّب من المشرفين عليه بذل جهود لإقناعه وإخضاعه ودفعه إلى التسليم. ولعلّ الأعجب أنّ ابن التغري بردي يروي خبراً شبيها بهذين الخبرين في النجوم الزاهرة، ولكنّه يتميّز عنهما في إقدام الحشّاش على الانتحار دون وجود أمر واضح من شيخ الجبل، ودون حدوث ضغط خارجيّ إلاّ تقدير الحشّاش ضرورةَ موته حتىّ يختبر بجثّته دفاعات العدوّ. وتتعلّق الحكاية التي يرويها صاحب النجوم الزاهرة بعمليّة اغتيال الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله سنة (496هـ)، وقدوم عشرة من الحشّاشين إلى القاهرة لتنفيذ العمليّة واختفائهم في بيت استأجروه يتحيّنون الفرصة لقتله، ولكنّهم شكّوا في الحرس الذي استنفر في طلبهم بعد بلوغ مخطّطهم إلى الخليفة، فكان لا بدّ من حيلة لكشف سرّ هذا الاستنفار، وإن كان الحرس قد تعرّفوا على وجوههم أم أنّ الأمر لا يعدو الشكوك من قبلهم. يقول ابن التغري بردي: "قال أحدهم: أليس هذا من مصلحتنا ومصلحة مَنْ تلزمنا طاعته؟ فقالوا: نعم، فقال: وما دللتكم إلاّ على نفسي، وشرع في قتل نفسه بيده بسكين في جوفه فمات في وقته، فأخذوا رأسه ورموه في الليل بين القصرين".[64]

---

[62]- برنارد لويس، **الحشيشيّة**، ترجمة سهيل زكار، سبق ذكره، ص ص 346-347

[63]- ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، 1992، الجزء 7، ص 64

[64]- ابن التغري بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، سبق ذكره، ج8، ص 159

وتدفعنا هذه الحكاية كما الشاهدان اللذان سبقاها إلى الاعتقاد أنّ التهيئة النفسيّة والتعليم الإيديولوجي من الأُسس الرئيسيّة التي أقامت عليها هذه الفرق السياسيّة تعاليمها وقوانينها الداخليّة، فكيف أمكن لها ذلك؟

***- تعليم الإيمان:**

تتّفق مُعتقدات الشيعيّ الإسماعيليّ النزاريّ مع معتقدات الشيعة الإسماعيليّة عامة من حيث إيمانه بأنّ الإمام هو محور الدعوة وجوهر العقيدة، لذلك لا بدّ من وجود إمام معصوم ومنصوص عليه صراحة، بشرط أن يكون من نسل محمد بن إسماعيل وأن يكون الابن الأكبر للإمام السابق. أمّا من مات من البشر، ولم يعرف إمام زمانه ولم يكن في عنقه بيعة له مات ميتة جاهلية، وهو لا يكتفي بذلك بل يُضفي على هذا الإمام صفات ترفعه إلى ما يُشبه الإله، ويخصّه بعلم الباطن ويدفع له خُمس ما يكسب، معتبراً أنّ الأرض لا ينبغي لها أن تخلو من إمام ظاهر مكشوف أو باطن مستور، فإن كان الإمام ظاهراً جاز أن يكون حُجّته مستوراً، وإن كان الإمام مستوراً فلا بد أن يكون حجته ودعاته ظاهرين، وهو مثل الشيعة الإسماعيلية يؤمن بالتقيّة منهجاً، ويعتمد السرّيّة سبيلا في الفترات التي تشتدّ فيها الأزمات. ويقول بالتناسخ مفترضاً أنّ الإمام خليفة الأنبياء جميعاً ووارث كلّ من سبقه من الأئمة. وقد قال شيخ الجبل بالشام رشيد الدين سنان بفكرة التناسخ وادّعى أيضا أنّه يعلم الغيب.

والمؤمن النزاريّ يُنكر كذلك صفات الله -أو يكاد- لأنّ الله -في نظره- فوق متناول العقل، فهو لا موجود ولا غير موجود، ولا عالم ولا جاهل ولا قادر ولا عاجز. ولا يقول بالإثبات المطلق ولا بالنفي المطلق، فهو إله المتقابلين وخالق المتخاصمين والحاكم بين المتضادين، ليس بالقديم وليس بالمحدث، فالقديم أمره وكلمته، والحديث خلقه وفطرته، وهو يعتبر الحجّ مثلا من الطقوس التي تحمل ظاهرا وباطناً، فظاهره حجّ إلى البيت الحرام، أمّا باطنه أو حقيقته فإلى إمام الزمان ظاهراً أو مستورًا.

إنّ تعلّم العقيدة الإسماعيليّة النزاريّة يحتاج إلى قدرة هائلة من الالتزام بضوابط هذه العقيدة والأخذ بتعاليمها دون مناقشتها. والثابت أنّ القائمين عليها، وأساساً في قلعة آلموت، يبذلون جهودا كبيرة في تعليم مبادئها لأنصارهم وتدريبهم على السمع والطاعة، لذلك حفلت كتب الأدب والرحلات التي عاصرت أوج ازدهار فرقة الحشّاشين بحكايات عن طرق تعليمهم مبادئ الإيمان لأنصارهم، وهي حكايات تمتلئ بالعجيب والغريب الذي تختلط فيه الأساطير بالوقائع التاريخيّة والإشاعات بالحقائق. ويبدو أنّ بعض هذه الحكايات غايته إبهار المتقبّل ولفت انتباهه إلى هذه الفرقة التي أرهبت خصومها واستطاعت أن تفتكّ منهم مصالح سياسيّة

واقتصاديّة قيّمة، فمن ذلك ما يرويه رحّالة البندقيّة الشهير ماركو بولو (Marco Polo)[65] من حكايات تتعلّق بقلعة آلموت وما حفّ بها من أساطير عن الفردوس الذي أسّسه شيخ الجبل لأنصاره، إذ جعل فيها: "حديقة كبيرة ملأى بأشجار الفاكهة، وفيها قصور وجداول تفيض بالخمر واللبن والعسل والماء، وبنات جميلات يُغنّين ويرقصن ويعزفن الموسيقى، حتى يوهم شيخ الجبل أتباعه أنّ تلك الحديقة هي الجنة، وقد كان ممنوعاً على أيّ فرد أن يدخلها، وكان دخولها مقصوراً فقط على من تقرّر أنّهم سينضمون لجماعة الحشّاشين. كان شيخ الجبل يُدخِلهم القلعة في مجموعات، ثم يُشرِبهم مخدّر الحشيش، ثم يتركهم نياماً، ثم بعد ذلك كان يأمر بأن يُحملوا ويوضعوا في الحديقة، وعندما يستيقظون فإنّهم سوف يعتقدون بأنّهم قد ذهبوا إلى الجنة، وبعدما يُشبعون شهواتهم من المباهج كان يتمّ تخديرهم مرّة أخرى، ثم يخرجون من الحدائق ويتمّ إرسالهم عند شيخ الجبل، فيركعون أمامه، ثم يسألهم من أين أتوا؟، فيردّون: "من الجنّة"، بعدها يرسلهم الشيخ ليغتالوا الأشخاص المطلوبين؛ ويعدهم أنّهم إذا نجحوا في مهمّاتهم، فإنّه سوف يُعيدهم إلى الجنّة مرّة أخرى، وإذا قُتلوا أثناء تأدية مهماتهم فسوف تأتي إليهم ملائكة تأخذهم إلى الجنّة".[66]

إنّ مثل هذه الحكايات التي تحاول تبرير الولاء المميّز للحشّاشين وقدرتهم على الالتزام بما يعاهدون عليه لها ما يشفع لها، فانتشار الأساطير والحكايات العجائبيّة عن هذه الفرقة راجع في أغلبه إلى استخدام طريقة الاغتيال السياسيّ شكلاً من أشكال المواجهة مع الخصوم إضافة إلى توظيف التقيّة والسرّيّة في المعاملات التي تتمّ بينهم وداخل نطاق ضيّق. وإذا كانت حكاية ماركو بولو تسعى إلى التفسير، حتّى وإن ضربت عرض الحائط بمنطق الجغرافيا الذي يؤكّد أنّ البيئة في جبال البورج (le borge)، حيث قلعة آلموت هي بيئة ثلجيّة في أغلب أيّام السنة تصعب فيها الزراعة، فإنّ لها مزيّة الاجتهاد في تأويل الغامض وتفسير إيمان الحشّاشين تفسيراً قريبا من المنطق الذي يستوعبه الجميع.

وما يعنينا في هذا المستوى، أنّ المُمارسات السياسيّة لحسن الصباح أو الشيخ سنان هي التي حدّدت درجة إيمان الحشّاشين بإمام الزمان وشيخ الجبل وبجملة القيم والعقائد الإسماعيليّة، لذلك وصلنا إلى درجة "من الإيمان" انتفى معها التفكير وغاب العقل عند الممارسة وحضر الجانب العقدي فقط. أمّا ماركو بولو، فقد سعى إلى تفسير سرّ انتفاء عقل الحشّاش فأوّله بتخدير شيخ الجبل للشباب بالحشيش والملذّات، وأوّله كذلك بصكوك الغفران والوعود بالجنّة بعد الموت والنجاح في تنفيذ المهمّات، وكأنّه برفعه القداسة عن أفعال شيخ الجبل

[65]- ماركو بولو عَبَرَ إيران في طريقه إلى الصين سنة 1273

[66]- Frampton, John: The Most Noble and Famous Travels of Marco Polo, London, The Argonaut Press, 1929, p 82

يستعيد المنوال الكنسيّ المسيحيّ ليقيس من خلاله، وهو ما يدفعنا إلى التساؤل هل يفي هذا المنوال بغرض تفسير إيمان الحشّاش أم أنّ الأمر أعمق إيديولوجيّا بكثير؟

***- الإيمان والقيامة الروحيّة:**

يمكننا الإجابة على بعض أوجه الاستفهام الأخير بالوقوف على حادثة رفع التكليف أو الحادثة المعروفة عند الشيعة النزاريّة بالقيامة، وقد أنجزها الإمام حسن بن محمد بن بزرجميد (ت561ه) بعد أن تولّى السلطة بسنتين، إذ تتّفق المصادر على سرد قصّة غريبة حدثت في القلعة النائية؛ ففي اليوم السابع عشر من شهر رمضان (سنة 559 هـ) أمر حسن بإقامة منبر في فناء آلموت يُواجه الغرب تُرفرف على أركانه الأربعة رايات، وجاء الناس من مختلف الجهات بأعداد كبيرة، ليتجمّعوا حول المنبر: "وبعد قرابة الظهر نزل السيد حسن على ذكره السلام من القلعة مرتدياً ثوبا أبيض وعمامة بيضاء، وتقدّم نحو المنبر من الجانب الأيمن، وارتقاه في خطى وئيدة، وتوّجه بالتحية ثلاث مرات: الأولى إلى أهل الديلم ثمّ إلى الذين على اليمين ثمّ إلى الذين على اليسار، وظلّ جالساً برهة، ثم وقف مرة أخرى وهو ممسك بسيفه، وتحدّث بصوت جهوريّ مخاطباً سكّان العوالم الثلاثة: عالم الجن، وعالم الإنس، وعالم الملائكة، فأعلن أنّه قد وصلته رسالة من الإمام المُختفي تحمل تعليمات جديدة وتقول: إنّ إمام عصرنا يبعث إليكم تحيّاته وسلامه، ويُبلِّغكم أنّه سمّاكم (خدمه الخصوصيّين المختارين)، وأنّه حرّركم من أعباء قواعد الشريعة وأحضركم إلى القيامة(...) ثمّ أمر بالمائدة فمدّت ودعا الناس إلى قطع صيامهم والمشاركة في الطعام والابتهاج وبعث الرسل يحملون هذه التعاليم السعيدة شرقا وغربا؛ ففي كوهستان كرّر رئيس قلعة مؤمن أباد نفس حفلة آلموت وأعلن نفسه وكيلا لحسن".[67]

يكشف هذا الشاهد الذي يورده برنارد لويس في كتابه آنف الذكر عن قدرة الإمام على التلاعب بإيمان الناس واستغلاله لصالح أغراضه الشخصيّة وتصوّراته الذاتيّة. فالدين في تصوّر هذا الإمام الشيعيّ النزاريّ انتهى دوره وأدّى غرضه، فانتهى حُكمه، وسقطت الحاجة إليه بعد كشف ستره وإظهاره رحمتَه وعفوه. لذلك يعلن القيامة، ويختار المؤمنين به من الإسماعيليّين ليصيروا خدمه المقرّبين وينقلهم أحياء إلى فردوس روحيّ بُغية معرفة الحقيقة والتأمّل في جوهر الله المقدّس، ويعفي الناس من الواجبات التي أقرّتها عليهم الشريعة من صوم وصلاة وزكاة وحجّ ماداموا في القيامة الروحيّة على اتّصال دائم مع الله.

بيد أنّ اللافت للنظر أنّ هذا التطويع العجيب للإيمان الذي أنتج نظاماً دينيّاً جديدا قد قابله اقتناع من المؤمنين الإسماعيليين ومُباركة وسعي إلى التنفيذ، سواء أكان ذلك في آلموت أو في المناطق القريبة منها التي

[67]- برنارد لويس، **الحشّاشون، فرقة ثوريّة في تاريخ الإسلام**، سبق ذكره، ص ص 112-113

أقرّت بالقيامة وسعت إلى تنفيذها، وحتىّ القلّة التي رفضت الانصياع إلى هذا الدين الجديد وأصرّت على اتّباع الطقوس والعبادات البدنيّة مارس الحسن ضدّها أقسى أنواع العقوبات "لتحريرها".

إنّ عدم الإيمان بما يؤمن به الحشّاشون خطيئة لا تُغتفر ولا يمكن علاجها إلاّ بالقتل لذلك: "أوضح (حسن) ضمنا وصراحة أنّه كما أنّ في زمن الشريعة إذا لم يبد إنسان ما طاعة وعبادة واتّبع قاعدة القيامة بأنّ الطاعة والعبادة روحيّتان، فإنّه يعاقب ويرجم ويقتل، كذلك فإنّ في زمن القيامة إذا التزم إنسان بحرفيّة الشريعة وأصرّ على الطقوس والعبادة البدنيّة فإنّه يعاقب ويرجم ويقتل".[68] وقد عاقب حسن جملة من العُصاة ولم يسلم منهم حتىّ صهره لرفضهم الامتثال إلى تعاليم القيامة. ولم يقف تطويع حسن بن محمد للإيمان على هذا الحدّ بل تواصل إلى مستوى إعلانه نوعاً من النبوّة الروحيّة بوصفه هو معلن القيامة، ورغم أنّه حفيد لبزرمجيد إلاّ أنّه وزّع مكاتيب على المناطق التي يُسيطر عليها وتدين له بالولاء يطالبهم فيها بإعلانه إمام العصر وابن الإمام السابق من نسل نزار. وصار اسمه مقترنا عندهم بالسلام، ليُقال له: "حسن على ذكره السلام." والثابت أنّ حسن بن محمد قد مات مقتولا سنة (561ه) بعد أن طعنه أحدهم أثناء زيارته لقلعة لاماسار وقد خلفه ابنه محمد بن الحسن بن برزجميد (607ه) الذي طوّر نظريّة القيامة ورسّخها، وقد ساعده على ذلك انحلال هيمنة السلاجقة في عهده وضعفهم وبداية التوسّع التركي.

صفوة ما يمكن استخلاصه، ممّا كنّا نذكر أنّ أهمّ شروط الحشّاش المؤمن هو انضباطه إلى الأوامر والتعليمات انضباطاً يجعله ينفّذ مهمّاته المقدّسة التي أوكلت إليه دون خشية الموت أو الخوف من الوقوع في الأسر بعد تنفيذها. وتكمن قداسة مهمّات الحشّاش - وأساسها الاغتيال السياسيّ - في إيمانه بمصدر هذه التعليمات واعتقاده فيه، فشيخ الجبل هو المُستأثر بعلوم الزمان ومهندس العقيدة الإسماعيليّة والوسيط بين الإمام وعامّة أتباعه، فلا يُقبل إيمان من أحد دون اعتقاد في حكمته وعصمته وتفويض الإمام المطلق له. وعن هذه الصورة "العجائبيّة" لإيمان الحشّاش قُصّت القصص ورُويت الأساطير التي تفسّر فعل الإيمان العجيب في شخصيّة الحشّاش الذي قد يقتل نفسه بمجرّد إشارة من شيخ الجبل. وقد بلغ تطويع السياسة لإيمان النزاريّين مبلغه عندما أعلن الإمام حسن بن محمد القيامة الروحيّة وألغى تكاليف الدين وتعاليم الشريعة داعياً الناس إلى قيامة روحيّة يقفون فيها بقلوبهم أمام الله ودون حاجة إلى شرائع أو التزامات، وهو ما أقبل عليه أغلب النزاريين حتىّ عرفوا في المراجع السنّيّة بالملاحدة وهدمة الشريعة، أمّا هو فلقّب نفسه بحسن على ذكره السلام، واعتبر نفسه إمام العصر، وادّعى كذلك نبوّة روحيّة سرعان ما قتل بسببها ليأتي ابنه خلفا له ومدعّما

[68]- برنارد لويس، **الحشّاشون، فرقة ثوريّة في تاريخ الإسلام**، سبق ذكره، ص 115

لنظريّة القيامة التي يتحرّر فيها الجميع من الشريعة وتبشّر بفهم جديد ومتطوّر لنظريّة الإيمان في تلك البيئة الإسلاميّة.

خاتمة:

إنّ تطويع السياسة للإيمان وتغيّر مفهوم الإيمان وتبدّله وفق مصالح سياسيّة محضة هو ما اجتهدنا في معالجته في هذا البحث من خلال نظرنا في برهة برز فيها هذا التطويع بطريقة جليّة إبّان تشكّل الطائفة الإسماعيلية الفاطمية النزارية بعد انشقاقها عن الدولة الفاطميّة واعتصامها بقلعة "آلمـوت" شمال إيران، وبعد دعوتها إلى إمامة نزار بن المستنصر بالله ومن جاء مِن نسله وذلك في الفترة الممتدّة بين القرنين الخامس والسابع للهجرة. وقد بحثنا في مفهوم الإيمان متطوّراً في تصوّر الشيعة ومنضّدا بطريقة تخدم صراع المتشيّعين لعليّ بن أبي طالب وآل بيته في صراعهم مع السلطة المركزيّة الأمويّة ثمّ العبّاسيّة من بعدها، لا سيما أنّ هذه السلط قد سعت إلى لجم كلّ طموح سياسيّ لأئمّة آل البيت وأتباعهم.

ثمّ نظرنا في تحوير الشيعة الإسماعيليّة لمفهوم الإيمان وفق تصوّرها الذي أسّست من خلاله عقائدها السرّيّة قبل أن تجهر بدعوتها وتنطلق لتأسيس أوّل دولة شيعيّة في تاريخ الإسلام. وقد أثبتنا خاصّة جملة المعتقدات التي يتميّز بها الإسماعيليّون عن غيرهم من الفرق الشيعيّة، وما ينبغي للإسماعيلي المؤمن أن يدين به، حتىّ يتميّز عن غيره من فرق الشيعة لافتين النظر إلى ما رموا به غيرهم من فرق شيعيّة من تهم مثل تهمة البداء التكفيريّة، وهي التهمة التي يقصد منها تحويل المسار الإلهيّ للإمامة، وتغييرها من إمام إلى إمام كما فعلت الشيعة الاثني عشريّة عندما غيّرت مسار إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق إلى الإمام موسى الكاظم.

ثمّ تطرّقنا إلى الإيمان مُحوّرا مع فرقة الحشّاشين ومُوظّفا لخدمة مصالحها السياسيّة. وقد عرضنا لجملة من المصالح السياسيّة التي خاضها الحشّاشون بفدائيّة المؤمنين من أبنائهم ممّن التزم بتعاليم شيخ الجبل وأوامره التي تلخّصت في الاغتيالات السياسيّة. وقد ذكرنا نسبة عالية من الاغتيالات التي أرعب بها الحشّاشون أجوارهم من الملوك والأمراء والقادة وقادنا ذلك إلى تحليل خصائص الإيمان عند الحشّاشين وطرائق تعليمهم عقائدهم للمؤمنين من أتباعهم ومن خلال هذه الخصائص فحصنا صورة الحشّاش المؤمن وأشكال انضباطه إلى التعليمات في مهمّاته، واعتبارها مهمّات مقدّسة تتأتّى قداستها مباشرة من شيخ الجبل مهندس العقيدة الإسماعيليّة والوسيط بين الإمام وعامّة أتباعه. ونظرنا أيضا إلى أعلى أشكال تطويع السياسة للإيمان بعد إعلان الإمام حسن بن محمد القيامة الروحيّة وإلغائه تكاليف الدين وتعاليم الشريعة، ودعوته الناس إلى قيامة روحيّة يقفون فيها بقلوبهم أمام الله ودون حاجة إلى شرائع أو التزامات.

إنّ ما اجتهدنا في إثباته في هذا البحث هو أنّ الإيمان يتحوّل عمليّا إلى جملة من العقائد والأوامر والنواهي التي تُحدّد بدقّة سمات المُلتزمين، وفئاتهم وحتىّ هويّاتهم الاجتماعيّة. ولعلّ أهمّ الأدلّة التي كشفت لنا عن البعد السوسيولوجيّ لمفهوم الإيمان هي ارتباطه الوثيق بالممارسات العقديّة الّتي تُبنى أساسا على قاعدة الإكراه باعتبار إلزامها المؤمن بجملة من الضوابط والقوانين، وفرضها ممارسات جوهرها الخضوع والطاعة والوفاء وهذا ما رأيناه مع إيمان الحشّاشين الذي انتقل إلى تنفيذ أعمى لأوامر ونواهٍ، أقساها يدعو إلى قتل النفس مباشرة وأطرفها يدعو إلى قيامة لا دين فيها ولا شرائع ولا قوانين.

المصادر والمراجع:

المراجع العربيّة:

- أبو الحسن الأشعري، **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلّين**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، بيروت، 1990
- أبو الفداء إسماعيل بن شاهنشاه، **المختصر في أخبار البشر**، الطبعة الحسينيّة المصريّة، 2010، ج3
- أبو حامد الغزالي، **فضائح الباطنيّة**، طبع دار البشير، عمّان- الأردن، الطبعة الأولى سنة (1993م).
- إبراهيم الموسوي الزنجاني النجفي، **عقائد الإماميّة الاثني عشريّة**، مؤسّسة الأعلميّ، بيروت، 1992، ج2
- ابن التغري بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، طبعة دار الكتب العلميّة، بيروت، 1992
- ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، طبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، 1992، الجزء 7
- **تلبيس إبليس**، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى (1414هـ- 1994م) تحقيق عصام فارس الحرستاني.
- الإمام النووي، **متن الأربعين النووية**، طبعة دار الغوثاني للدراسات الإسلامية، دمشق – سورية، (د ت) تحقيق محمد بسّام حجازي.
- برنارد لويس، **الحشيشيّة** ترجمة سهيل زكار، نشر دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2006
- برنارد لويس، **الحشّاشون**، فرقة ثوريّة في تاريخ الإسلام، تعريب محمد العزب موسى، نشر مكتبة مدبولي، الطبعة الثانية، القاهرة، 2006
- دائرة المعارف الإسلامية،الطبعة الثالثة، مركز الشارقة للإبداع الفكري بالتعاون مع الهيئة المصرية للكتاب، مادة الإسماعيلية، ج2
- دارول أركون، **تاريخ الجماعات السريّة**، ترجمة عبد الهادي عبد الرحمان، تانيت للنشر، الرباط، المغرب، 1993
- سليمان عبد الله السلومي، **أصول الإسماعيليّة وما بعدها**، طبع دار الفضيلة، الرياض، ط الأولى، 2001
- الشيخ المفيد محمد بن محمد النعمان العكبري، **النكت الاعتقاديّة**، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1939
- الشيخ جعفر السبحاني، **بحوث في الملل والنّحل**،ج 4، مؤسّسة النشر الإسلامي، طبعة 4، نسخة غير مصحّحة، 1415هـ.
- الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، **أصل الشيعة وأصولها**، مكتبة النجاح، القاهرة، (د. ت)
- الطبري الصغير محمد جرير، **دلائل الإمامة**، منشورات مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، ط2، بيروت، 1998
- طاهر بن إبراهيم الحارثي اليماني، **الأنوار اللطيفة في حقيقة الفلسفة الفاطميّة**، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، مصر، 1970
- عارف تامر:

  * **تاريخ الإسماعيليّة**، دار رياض الريس، لندن – قبرص، جزء 1، 1991
  * **الإمامة في الإسلام**، دار الكتاب العربي، بيروت، د ت.
  * **ثلاث رسائل إسماعيليّة**، دار الكتاب العربي، بيروت، 1983
- عبد الرسول الغفار، **شبهة الغلو عند الشيعة**، طبع دار المحجّة البيضاء، بيروت، ط الأولى (1995)
- عبد القاهر بن طاهر البغدادي، **الفرق بين الفرق**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة دار المعرفة، بيروت.(د ت).
- عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف، **نواقض الإيمان**، دار النشر: مدار الوطن للنشر الطبعة الأولى 1420 هـ - 1999 م.
- عبد الله السبيتي، **المباهلة**، طبعة مكتبة النجاح، طهران، (د ت).

- علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1384هـ، ج 3
- عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني(ابن الأثير)، **الكامل في التاريخ**، تحقيق إحسان عبّاس، طبعة دار صادر بيروت، 1973م، ج 4
- علي جواد، **المهدي المنتظر عند الشيعة الاثني عشريّة**، منشورات الجمل، كولونيا، ألمانيا، ط2، 2007
- فرهاد دفتري، **خرافات الحشاشين وأساطير الإسماعيليين**، ترجمة سيف الدين القصير، دار المدى، دمشق، الطبعة الثانية، 2004
- **الإسماعيليون في العصر الوسيط**، ترجمة سيف الدين القصير، دار المدى، دمشق، 1999
- القاضي النعمان، **دعائم الإسلام**، تحقيق آصف بن علي، ط. الثالثة، دار المعارف، القاهرة، (د. ت).
- محمد الخطيب، **الحركات الباطنية في العالم الإسلامي**، الطبعة الأولى، نشر وتوزيع مكتبة الأقصى، 1984
- محمد بن أحمد الجوير، **الإسماعيلية المعاصرة**، نشر مكتبة الرشد، الرياض، السعوديّة، 2008
- محمد بن يعقوب الكليني، **الكافي الأصول والفروع**، دار الكتب الإسلاميّة، مطبعة الحيدري، ط3، ج1، (د. ت).
- مظفّر محمد حسين، **الشيعة والإمامة**، المطبعة الحيدريّة، النجف، ط2، 1951
- مصطفى الشيبي، **الصلة بين التصوّف والتشيّع**، دار المعارف، القاهرة،(د. ت).
- محمد بن أحمد الجوير، **الإسماعيليّة المعاصرة**، نشر مكتبة الرشد، الرياض، السعوديّة، 2008
- محمد مؤنس عوض **البستان الجامع مصدراً لتاريخ الإسماعيليّة النزاريّة في بلاد الشام** في القرن 6 هـ/ 12 م، الطبعة الأولى، القاهرة، 1982
- محمد كامل حسين، **طائفة الإسماعيليّة، تاريخها ونظمها وعقائدها**، مكتبة النهضة المصرية، 1959م
- مصطفى غالب، **تاريخ الدعوة الإسماعيلية**،، طبع دار الأندلس بيروت الطبعة الثانية، (د ت).
- محمد عبد الفتاح عليان، **قرامطة العراق**، الهيئة المصرية العامة للنشر، القاهرة، 1970
- محمود إسماعيل، **الحركات السرية في الإسلام**، دار القلم، بيروت، 1973
- هاينس هالم، **الشيعة**، ترجمة محمود كبيبو، شركة الورّاق للنشر المحدودة، ط1، 2011

المراجع الأجنبيّة:

- Boivin, Michel: "Les Ismaéliens". Turnhout, Éditions Brepols, 1998
- Dachraoui, F: « al-Mahdî `Ubayd Allâh ». "Encyclopédie de l'Islam". Tome 5 (1986), pp. 1233-1234
- Daftary, Farhad: "Les Ismaéliens, Histoire et traditions d'une communauté musulmane", Paris, Fayard, 2003
- Durkheim, Émile: Les formes élémentaires de la vie religieuse, Presses Universitaires de France, 5 eme édition, 2003
- Esmail, Aziz et Nanji, Azim. « The Ismâ`îlis in History » dans "Ismâ`îlî Contributions to Islamic Culture". pp. 225-265. Édité par Seyyed Hossein Nasr. Téhéran, Imperial Iranien Academy of Philosophy, 1977
- Frampton, John The Most Noble and Famous Travels of Marco Polo, London, The Argonaut Press, 1929
- Peter Berger, the sacred canopy: elements of a sociological theory of religion, Garden city, (NY), Doubleday, 1967, p18

- Makarem, Sami Nasib: "The Doctrine of the Ismailis". Beyrouth, Arab Institute and Publishing, 1972
- Momen, Moojan: "An Introduction to Shi`i Islam". Yale, Yale University Press, 1985
- Nanji, Azim: "The Nizârî Ismâ`îlî Tradition in the Indo-Pakistan Subcontinent". New York, Caravan Books, 1978
- Stark, Freya, The Valleys of the Assassins and Other Persian Travels. New York, (2001).
- Shahrastânî. "Al-Milal wa al-nihal". Éd. par Muhammad Fath Allâh Badrân. 2 tomes. Le Caire, 1366-1375/1947-1955 ; traduction avec introduction et notes par Daniel Gimaret et Guy Monnot dans "Livre des religions et des sectes", tome 1, Belgique/Peeters, UNESCO, 1986 ; traduction avec introduction et notes par Guy Monnot et Jean Jolivet dans "Livre des religions et des sectes", tome 2, Belgique/Peeters, UNESCO, 1993
- Steigerwald, Diane. « L'Imâmologie dans la doctrine ismélienne nizarienne ». Thèse de maîtrise, Université McGill, 1986
- Walker, Paul E: "Early Philosophical Shiism, The Ismaili Neoplatonism of Abû Ya'qûb al-Sijistânî". Cambridge, Cambridge University Press, 1993
- Yahia, Osman: « Ismaélisme », "Encyclopedia Universalis". Tome 10 (1985), pp. 277-279

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com